

مجتمعنا

الدكتور عبد الحميد يونس

مكتبة

شيخ المترجمين

عبد العزيز توفيق جاويد

اخترنا لك ...

٢٤

مجتمعنا

بقلم

الدكتور عبد الحميد يونس

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر



الرئيس جمال عبد الناصر

تمهيد

كلُّ امرئ ينزع بطبيعته الإنسانية إلى أن يعرف نفسه المفردة ، ولم يبدأ هذا النزوع بتلك العبارة التى نُقشت على أحد المعابد اليونانية فى العصر القديم ، تدعو الآحاد إلى أن يتعرفوا على أنفسهم بأنفسهم ، ذلك لأن هذا النزوع سمَةٌ من سمات الإنسانية ، بدأت معها ، وارتقت برقيها ، وتعقّدت بتعقد الحياة فى العصر الأخير . وهذه المعرفة — أو لعل الأصح أن نقول — وهذا النزوع إلى المعرفة ، هو الذى يحقق شخصية الفرد ، ويجعل له « الخصوصيّة » التى يماز بها من سائر الأفراد ، فى مجتمعه الكبير ، ومجتمعه الصغير على السواء . ولولاها لأصبح الأفراد آحاداً يُعرفون بنوعهم وجنسهم فحسب ، كما تعرف الآحاد فى الأشياء والنبات والحيوان . . . بصفات عامة مشتركة ، وهى إن تميزت ، فإنما تتميز بظواهر تقاس بالأشكال والألوان والأحجام وما قد يكون بين أجزائها من نسب تختلف بها عن غيرها من الأجزاء الموجودة فى جنس أو نوع أو صنف . أما أفراد النوع الإنسانى ، فلهم قسماتهم التى تدلّ على كل واحد منهم ، وهى ليست مجرد القسمات الظاهرة على الوجوه فقط فهذه أمارات خارجية ، ولكنها قسمات نفسيةٌ تحققها شخصية الفرد ، ويظهرها اتجاهه الخاص فى التخلّق والسلوك .

وعلى قدر تحرّرنا من الكبت ، ومن الخوف ، ومن الاستغلال

والتّسخير ، تنمو شخصياتُنا الفردية، ويعظم نصيبنا من الفطرة الإنسانية، وقليل من الناس استطاعوا فى العصور القديمة والوسطى ، أن يحققوا شخصياتهم ، وأن يرتفعوا بكراماتهم الإنسانية فوق الضرورات التى يشترك الإنسان فيها مع غيره من الأحياء . وإنك لتُدير وجهك إلى الحياة الماضية ، وتنظر فيما سطره الأولون ، وفيما خلفوه من تراث مادىّ شاخصى فيأخذك العجب ، من أنّ « الفرديّة » لم تكن طابع جميع الناس ، ولكنها كانت طابَعَ الأقلّين ، اكتسبها بعضهم بالرسالة التى طولب بأدائها ، وتحمّل مسئولية تحقيقها ، فعرف لحياته ، ولحياة غيره من بنى جنسه غاية تدفع إلى العمل ، وقيمة عليا تكافئ فى ذاتها هذا العمل ، ولو تعرض فى سبيل ذلك لأذًى قد يحبسه عن المجتمع أو يُودى بوجوده ، وقد يتجاوز ذلك إلى أهله وعشيرته وذريته ، واكتسب بعضهم الآخر هذه الفرديّة بظروف اجتماعية أو اقتصادية خارجية ، يسّرت عليهم مؤونة العيش ، وحرّرتهم من رِبقة الحاجة ، وأسْر الضرورة ، وتسخير الغير.
وإنه ليقال بحق أن اكتشاف « الشخصية » فى مطلع القرن الماضى كان أعظم كشف حصلت الإنسانية عليه ، وهو كشف لا يمكن أن يقاس به كشف قطر غير مأهول أو قارة مجهولة ، ولا يمكن أن يقاس به كذلك كشف قوة كامنة أو طاقة مكنونة فى عنصر من عناصر الأشياء التى ندْرج بينها ، بل إنه كشف يعظم حتى على ما يفاخر به عصر النهضة الأوروبية من أنه عرف العقل الإنسانى ، وحرره ، أو حاول أن يحرّره ، من رواسب الخرافة ، وشوائب التخليط . بيْد أن هذا الكشف

المجيد للشخصية الإنسانية الفردية ، وإيمان الآحاد بها ، عرّض الناس فى القارة الأوروبية ، وفى غيرها ممن تأثروا هذا الكشف لتجربة قاسية ، دفعتهم إلى أن يتصوروا ذواتهم أعياناً مُتفردة عن غيرها ، منسلخة عن مجتمعها ، غير مرتبطة بالآخرين ، وغير مسئولة عن الآخرين ، وانقلبت المزّية من الكشف ، وهى مزية لا تنكر ، لأنها حررت الأفراد من عبودية المحاكاة ، ومن نطاق الشكل المحكم المحْسوب فى السّلوك الخاص ، إلى رذيلة تبرّر التخلص من العرْف الصالح ، والخروج على بعض قواعد الأخلاق ، وعدم الاعتراف بالفضائل الثابتة ، فى جميع العصور ، وجميع البيئات — وليس من الغلوّ أن نقول إننا فى مصر لم نصل جميعاً إلى اكتشاف الشخصية الفردية التى تجعل كل واحد يستطيع أن يحقق ذاته . . . نعم أفاد المثقّفون من ذلك الكشف ، وأذاعه الأحرار منهم ، ونجح آحاد من المفكرين فى تطبيقه على ذواتهم ، وبرزت بعض الشخصيات المتفرّدة فى الفكر والأدب والفن والدعوة إلى إصلاح الحياة ، ولكنهم يعدّون على الأصابع ، واستغلّ الذين احتكروا الخير دون سائر المواطنين ، شيوع هذا الكشف ، ولوّنوا مصالحهم فى الاحتكار والاستغلال والاستعباد بألوان الحقوق الديمقراطية ، وأذاعوا شعارات مضلّلة تفننوا فى صياغتها ، وتسجيع ألفاظها ، وفصلوا بينها وبين ما تحمل من معنى ، حتى أصبحت اللغة عندهم أصواتاً ومخارج ، واطمأنوا إلى ما تستحدثه فى العقول والقلوب من خدْر سائغ ، ثم مضت الحياة فى طريقها ، وهى لا يمكن أن تتوقف بحال من الأحوال ، فحطمت

الأصنام ، وحققت بإرادتها الشعبية حُلمَ الأجيال بتحرير الفرد من الكبْت ، ومن الخوف ، ومن الاستغلال ، ورفعت الحواجز التى كانت تحول بين الفرد ، وبين تنمية شخصيته ، وتحقيق وجوده الذاتى .

والحياة دائماً تُفيد من تجاريبها الموصولة الكثيرة ، ومن أجل ذلك كان العمل على تحرير الفرد ينتظم — ولا نقول يساير أو يوازى — العمل على تحرير الجماعة ، وكانت الجهود التى تسعى إلى تخليص الشخصية الفردية من رواسب القرون ، تنتظم الجهود المبذولة لتصحيح الأوضاع الاجتماعية ، والعلاقات الاقتصادية ، ورفع مستوى المعيشة للأفراد والطبقات ، وإقامة الحياة على أساس وطيد متماسك يرتكز على التوحيد بين المواطنين وبين الدولة ، والتوازن بين الإنتاج والخدمات ، والتكافل بين الطبقات ، والتعاون بين جميع العناصر التى يتألف منها المجتمع المصرى .

ومن أجل هذا كله كان لزاماً علينا أن نعرف أنفسنا المفردة ، معرفتنا لنفسيتنا الجماعية ، فالفرد يستمد وجوده من جماعته الخاصة ، وجماعته العامة معاً ، وهو لن يستطيع أن يعرف ذاته إلا إذا عرف مجتمعه الذى يعيش فيه وله ، ويأخذ منه أكثر مما يعطيه . وإذا كان نزوع الفرد إلى معرفة نفسه ، قد انتهى به إلى أن يجعل لهذه النفس علماً قائماً برأسه ، له أصوله ومناهجه وتجاريبه أيضاً ، فإن نزوع الجماعة المتبلورة المتجانسة إلى معرفة نفسها العامة ، قد انتهى بها آخر الأمر إلى أن تجعل فى مجال علم النفس شعبة قائمة برأسها لوجدان الجماعة .

ولا مجال لتكرار القول بأن علم النفس يتفرع إلى شعبتين ، تعرض الأولى للأفراد وتلاحظ نزعاتهم وأهواءهم ومجالات مشاعرهم وأفكارهم وما لهذا كله من الأثر فى شخصياتهم وألوان سلوكهم . وتعرض الثانية للجماعات ، وتفسر ذاتياتها المختلفة ، وأهواءها المتباينة ، وما يرسب فى أطوائها من تراث الأجيال وما تنزع إليه واعية أو حالمة ، وتُفرّع أعمالها على هدى الدراسة المتأملة البصيرة . وكما أن هناك ضربْين من علم النفس الفردى : أحدهما وصفى والآخر تحليلى ، فكذلك لعلم النفس الجماعى ضربان : أحدهما وصفى والآخر تحليلى أيضاً . يعالج الأول اتجاهات جماعات بعينها ، يقص أثرها ، وهو يساير التاريخ فى ذلك ، ويحاول الثانى أن يُحلل تلك الاتجاهات ويتعرف إلى مصادرها وبواعثها ، ويخط القوانين العامة التى تخضع لها هذه الجماعات من النشأة والتطور جميعاً . وهذا الضرب الثانى أحدثهما ، وهو يكاد يحلّ على الأيام محل فلسفة التاريخ . ولعله قد أصبح الآن أهم ما يعنى به علم النفس الجماعى بأسره . أضف إلى ذلك أن علم النفس الفردى لا يستطيع أن يقوم بمهمته فى تشخيص الفكر إلا إذا أدرك البواعث الجماعية التى أنشأت هذا الفكر الفردى ، وما رسّبته فيه مما تسرب فى جبلّته أو غريزته أو بقى يخالط الوعى ويقيد الإرادة ، ويحدد السلوك .

والمجتمع المصرى عبارة عن أمة موحدة متجانسة موصولة التاريخ منذ أقدم العصور إلى الآن ، وهذا المجتمع الكبير تنتظمه جماعات صغيرة مُتفاوتة القدر والعمر ، ولهذه المجتمعات الصغيرة ، أو لهذه النظم الاجتماعية ،

علاقات ووظائف ، مثلها فى ذلك ، مثل الجوارح والأعضاء فى الجسم الحىّ ، يكمل بعضها بعضاً ، وتقوم كلّ جارحة منها بوظيفة خاصة ، ومن ثَمّ كان من الضرورى – ونحن ننزع إلى معرفة نفسنا الجامعة – أن نعى هذه الجوارح الاجتماعية ، وأن نلاحظ ما بينها من وشائج ، وأن ندرس ما لكل منها من عمل ووظيفة ، وأن نتبين إلى جانب هذا كله ، موقف الفرد باعتباره مواطناً مصرياً ، من مجتمعاته الخاصة ، ومن شعبه الكبير ، وما يُكسبُه الانتساب إليها من حقوق ، وما يفرضه عليه من واجبات ، وما يُصوّرُ له مجاله الحيوى ، ويمنحه من ملامحَ نفسيه ، ومقومات شخصيه . . .

ولما كان التاريخ لا يقوم على الحكاية التفصلية للواقع فى الماضى ، وإنما يقوم على تصنيف الوقائع البارزة ، والأحداث المشهورة ، ومحاولة إدراك أسبابها القريبة والبعيدة ، ونتائجها الظاهرة والمباشرة ، فقد أصبح لزاماً على الدارس لجماعة من الجماعات ، أو مجتمع من المجتمعات ، أن يصطنع منهجاً آخر ، أقرب إلى التفصيل ، وأدنى إلى الواقعية من منهج التاريخ ، وهو إذا أفاد من الدراسات الاجتماعية المختلفة ، ومن علم النفس الاجتماعى والجماعى ، فإن هذه الفائدة لن تبلغ به الغاية التى يريد من رسم صورة مُقاربة لمجتمعنا المصرى ، ذلك لأنه يحتاج أولاً وقبل كل شىء إلى ملاحظة ذاتية تستخرج رواسب الماضى ، وتراث الأجيال ، وتفطن إلى الأعضاء أو الجوارج الاجتماعية التى فقدت وظيفتها ، ولم تبق منها إلا نُدْبة أثرية تدل على وجودها السابق ، وإلى النظم التى

تتحور بتحوّر وظائفها ، ثم إلى الوظائف الجديدة التى تفرضها الحياة الجديدة ، والتى ينبغى لها أن تخلق العضو كما يقول أصحاب علم الحياة.. ولكى ندرأ عن معرفتنا لمجتمعنا ، ما شاب الدراسات السابقة ، من أنظار خارجية ، كان مفروضاً علينا – ونحن نحاول تصوير هذا المجتمع من الداخل – أن نعتمد على تحقيقه لشخصيته العامة بالتعبير الفنىّ ، وبالأدب الشعبي بصفة خاصة ، فإن هذا الأدب تندرج فيه أحلام الشعب المصرى ، ومثل الشعب المصرى ، وآمال الشعب المصرى ، كما تندرج فيه تجاريبه المريرة فى النزوع إلى التحرر ، وآلامه الحادة فى مغالبة الظلم والاستعباد، ثم إن هذا الأدب الشعبي يصور المجتمع من السفح ، أو من أسفل الكيان الاجتماعى ، تصويرَه له من باطنه ، ويرُسّبُ تراثه العريق ، ولا يحتفظ منه إلا بما يحس بعائدته عليه ، وقيامه بوظيفة له ، ويرفضُ منه حلْقات ينثرها من كيانه كلما انقرضت فاعليتها الحيوية . وفى هذا الأدب . . فى الملاحم والأغانى والأمثال والوصايا خلاصةُ معارفَ عملية تتلقاها أجيال عن أجيال .

ولقد أصبح لزاماً علينا كأفراد وجماعات وشعب ، فى هذه الفترة المجيدة من تاريخنا أن نشبع ذلك النزوع إلى معرفة ذاتيتنا الجامعة ، وهو بالنسبة لنا بعد أن رفعت الحواجز ، وحطمت الأغلال ، فرض عينٍ لا فرض كفاية . . . فرض عين لأنه ضرورة لكل إنسان يعى إنسانيته ، ولأنه الوسيلة الكبرى لتحقيق الشخصية الفردية والعامة معاً ، فهو يجعلنا ندرك أولاً مكاننا من التاريخ ، وثانياً مكاننا من الحضارة، ويُعيننا على أن

نتمثل حقوقنا ، وأن ننهض بمسئولياتنا ، لا بالنسبة لأنفسنا واجيالنا الحاضرة فقط ، ولكن بالنسبة لذَرَاريـنا وللإنسانية كلها أيضاً . وإذا كان أصحاب التاريخ الطبيعى يقولون إن شرط الحياة هو تمام الملاءمة بين الكائن الحى وبين بيئته ، فإن ما نشهده اليوم من تغيير أساسى من بيئتنا المادية والاجتماعية يلزمنا ، ونحن الناهضون بالتغيير ، المعاونون على التطور ، أن نحتفل بنظمنا الاجتماعية ، وأن نعمل على اختيارها ، وأن ندرس وظائفها ، وذلك لكى نجعلها مسايرة لما ينبغى أن تكون عليه ، قابلة للتطور ، وعاملة عليه فى آن واحد . . وبهذا يُصبحُ المجتمع ضرورة مرْجُوّةً من الحياة الإنسانية المتحضرة ، ويصبح كريماً على منظماته وعلى أفراده ، وبذلك يتمّ التوازن الحيوى بين الفرد وبين مجتمعه ، ويلتقى وجدانه بوجدان مجتمعه ، وتندمج عزّته فى عزّة مجتمعه . . .

اكتشاف الوطن

قال الزعيم الإيطالى « ماتزينى » فى القرن الماضى وهو يدعو الشباب إلى الوحدة الإيطالية : « إنكم تبحثون عن وطن وهى فطرة غرسها الله فى قلوبكم ، ويدعوكم صوت أبطالكم . . إنكم إخوة » . . ولقد كنا فى انتفاضاتنا الوطنية الماضية نبحث عن وطننا مصر ، ونجد فى الكشف عن مقوماته وخصائصه ، وعن إمكانياته الطبيعية والبشرية ، فلا نكاد نصل إلى شيء . . وتركزت الوطنية فى نفوسنا وعقولنا ، فكرة مجردة لا حدود لها ولا أهداف ، تلونها العصبية ويشكلها الطغيان الفردى ، ويعبث بها الاستعمار . . إن وطننا مصر ليس مجرد خريطة فى مصور جغرافى ترسم حدوده بالخطوط والألوان، وليس فكرة ما أياً كانت ، يتلقفها بعضنا عن بعض أو يحفظها من كتاب ، وليس عاطفة مبهمة لا تحفز إلى عمل ، وليس جيلاً واحداً من الناس ، وليس طبقة معينة من الضاربين فى أرضه . . ولكنه هبة الله ، وتراث أحقاب وجماع أجيال ، وواقع حياة . . وكل مواطن صورة حية ناطقة للوطن ، فيه طبيعة بيئته ومجد ماضيه ، وجهاد حاضره ، وأمل مستقبله .

وإذا كان المستعمرون والطغاة قد لفّوا هذا الوطن فى مجموعه وفى آحاده بالضباب ، حتى لا يكتشفه المواطنون ، وحتى تتحكم فيه طائفة من غير أهله تساندها قلة خيّلت لنفسها أن الوطن وقف عليها وحدها ،

تحتكر خيراته ، وتبدد ثمراته ، وتغمض أعينها عن إمكانياته ومقدراته ، فإن أحرار هذا الجيل قد بددوا الضباب ، ورفعوا الغشاوة ، وجدّوا يكشفون عن الوطن الذى طال بحث المواطنين عنه . . نحن جميعاً هذا الوطن ، والكشف عنه هو الكشف عن أنفسنا . . ولقد مضى الزمن الذى كنا فيه منقسمين إلى بيئات وأقاليم ، وكان الفرد منا يدرج على أرض لا يعرفها ، ولا تكاد تكون له بها صلة ، وأصبحنا نعرف وطننا بطاقته المادية والبشرية ، وبتراثه العريق فى الماضى ، وبإمكانياته ومقدراته فى الحاضر ، ونصنع مستقبله الذى يكافئ تاريخه ، والذى يضعه فى مكان الصدارة من العالم المتحضر كما وضعه الله فى موقعه الجغرافى الفريد ، فى ملتقى القارات الثلاث ، وعند مجمع البحرين وبين صحراوين عظيمتين .

ولسنا نريد أن نقف من زاوية المؤرخين الأجانب الذين كانوا يحكمون على مصر من خارجها ويلونون آراءهم فيها واعين أو غير واعين بموقف حكوماتهم أو شعوبهم من مصر ، وإن كانوا يقدمون بين يدى أنظارهم التاريخية بتمهيد يصور الوطن المصرى تصويراً جغرافياً عاماً يضعها فى مكانها من خطوط الطول أو خطوط العرض ، ثم يصفون تربتها الصفراء والسوداء والخضراء ، ويقيسون سطحها ، ويوازنون بين واديها ونجدها وكثيبها ، فإن ذلك لا يغنينا شيئاً ، ونحن نريد أن نستكمل اكتشاف وطننا المصرى ، لندرك انطباعه فينا ، وتأثيرنا نحن فيه ، فالوطن ليس ، ولا يمكن أن يكون بيئة مادية جغرافية فحسب ، نلاحظ

التغير فيها بالمنطق الجغرافى أو التاريخى الذى يقف عند السطح ولا يتغلغل فى البواطن بل لا يكاد يفطن إلى الدلالات الرّوحية والنفسية ، فالعامل البشرى بما فيه من نزوع ومعرفة واتجاه هو مضمون هذا الوطن المادى ، وهو معناه الذى لا معنى له سواه ، وهو فوق هذا وذاك يؤثر فى شكله ، ويُغيّر بعض التغيير فى صورته ، فالنيل – مثلا – قد حُوّل عن مجراه بفعل مينا أول من عُرف من الفراعين ، ثم ضبطت الإرادة البشرية فيضانه ، ووزعت مياهه ، وسوف تتحكم قريباً فى مجراه ، وفى تيّاره ، وتجعله واحد المنسوب طوال العام تقريباً . .

وإذا كنا نريد مقومات الوطن المصرى من الناحية الطبيعية ، وهى مقومات كيّفت التاريخ المصرى ، وشكلت حياة المصريين ، وتغلغلت فى نفوسهم ، وطبعت وجدانهم العام ، ووجداناتهم الفردية الخاصة ، هذه المقومات تتألف من ثلاث ظواهر كونيه كبيرة تصلح فى ذاتها مجتمعة لتكون شارة أو رمزاً للوطن المصرى ، وهذه الظواهر الكونية الثلاث مرتبطة ومتفاعلة ، وهى لا تبرز فى موضع بروزها فى هذا الموضع الفريد ، وهى تُضاف إلى الحقيقة الأولى فى موقع مصر الفذ من إفريقية وبين أوروبا وآسيا ، تحرس مدخل البحر الأحمر ، وتشارك فى توجيه الحياة فى البحر الأبيض ، وتشع الحضارة إلى مدى بعيد فى كل اتجاه . . وأول هذه الظواهر الكونية الكبيرة الثلاث هى الشمس التى تكاد تبدو سافرة النهار بطوله على مدى العام ، ولا ترمد عينها إلا قليلاً ، ومن هنا قدسها المصريون الأقدمون ولاحظوا دورتها ، وقاسوا عليها فترات الزمن

فى اليوم ، نهاره وليله ، وفتراته من السنة فصولاً محدده ، وجعلوا من ذلك كله تقويماً من أدق التقاويم ، ثم فطنوا بعد ذلك إلى تأثيرها فى الأشياء والأحياء بما تُسبغه من حرارة ، وما تُشعه من ضوء ، ووصلوا بينها وبين الإيجاد ، وجعلوها رمز الحياة ، ثم أدركوا ما بينها وبين نيلهم من تفاعل ، حين رأوْها تصعد الماء إلى السماء ، فأطلقوا على السحاب النيل المرتفع ، وقبسوا منها الوضوح والبساطة ، وعدم التعقيد ، والنظام ، والاستقرار ، وأخذوا من دفئها ما يعمرُ قلوبهم بالحرارة ، ثم جعلوا منها رمزاً للضمير ، أو العين التى ترقب أبداً فعال الناس ، وكما أنها مذ تطلع فى الأفق الشرقى إلى أن تغيب فى الأفق الغربى ، تعين الناس على التمييز بين الشّعاب والمسالك ، ومختلف الأشياء والكائنات ، فقد أصبحت سفينة الملايين ، تطلّ منها عين تميزُ بين الخير والشر فيما يصْدُرُ من الناس من أفعال وحركات ، ولا يزال المصريون يتأثرون هذه الظاهرة الكونية فى فطرتهم ، وفى وجداناتهم ، وفى أخلاقهم ، ولا تزال أعضاء أثرية من عقيدتهم فيها ، وهى أعضاء غيرُ ذات وظيفة نراها فى النقش على الكعك ، ونراها حين يلقى الصغار بأسنانهم فى عين « الشمّوسه » ! ونراها فى غير ذلك من تصرفات يأتيها البعض بالقصور الذاتى دون أن يتوقف لحظة ليعرف مصدرها القديم الموغل فى القدم ، والشمس فى تخلّد المصريين شمسان . . شمسان على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة ، شمس كبرى يتصوّرونها أقرب ، وهى منذ الربيع إلى قبيل الشتاء ، وشمس صغرى، فيما بقى من السنة . وتقويمهم القديم

لا تزال له وظيفة حية فاعلة إلى الآن ، يحتكمون إليه إذا أرادوا معرفة الجو بدقة ، أو إذا أرادوا التهيؤ للغرس والحصاد جميعاً ، وهم لا يزالون يحفظون الأمثال الشعبية التى يعبرون بها عن الفصول ، وخصائص كل منها ، بل عن الشهور وخصائص كل منها ، وهذا التقويم الشمسى هو الذى أعطى أوروبا والعالم الغربى التقويم الحاضر ، وعلى الرغم مما أدخل عليه من تصحيح أو ضبط فإن انطباق التقويم الشمسىّ المصرى لا يزال أدق فى الدلالة على الطبيعة المصرية ، ومن ثم بقيت وظيفته وعاش مع المصريين يرجعون إليه فى ضرورات حياتهم العملية ، وهم يحفظون أسماء شهوره ، ويصوغونها فى أمثالهم ، وإن نسوْا مُسمياتها التى أطلقت عليها أو أخذت منها .

وثانية الظواهر الكونية الكبيرة هو الرمز الخالد على مصر . . يدل عليها ، ويقترن اسمها به دائماً ، لأنها قطعة منه . . إنه هذا النهر العبقرى الذى لا نظير له بين أنهار العالم جميعاً من طوله ، وانتظام فيضانه ، واستقامة مجراه ، وعرف المصريون فضله عليهم ، ومكانه منهم ، فقدسه قدماؤهم ، كما فعلوا مع الشمس ، وتصوروا فى الماضى البعيد أنه ينبع من الجنة ، وهذا النيل ينحدر إلى مصر ، ويستقل بنفسه فى واديها ، فلا يلتقى به رافد واحد فى تربتها ، وهو الذى شق طريقه فى أطوائها ، ووصل بين وسط أفريقية ، تلك القارة العظيمة الممتدة إلى الجنوب ، وبين البحر المتوسط عند تفاعل الحضارات ، وعند احتكاك الشرق

بالغرب . . وهذا النيل هو الذى نقل التربة الخصيبة إلى هذه البقعة من العالم ، وجعلها أرضاً سوداء ، تنبت الخير ، وتختلف عن الصحراء الممتدة عن يمينه وعن شماله ، وواديه يضيق فى مصر العليا ثم ينفرج وينبسط ابنساطة الكف فى مصر السفلى ومن هنا فرق المصريون القدماء بين الأرض السوداء التى تزرع ، وبين الأرض الحمراء التى تمتد بها الصحراء ، ونظروا إلى اتجاه نيلهم ، فسايروه فى اتجاهه البشرى والحضرى ، ورسموا الجهات الأصلية على مقتضى ذلك فكان الاتجاه ، البحرى ، والاتجاه القبلى ، وتصوروا جميع الأنهار فى القديم على شاكلته حتى إذا رأوْا النهرين فى أرض الجزيرة ، تعجبوا وظنّوهما معكوسى الاتجاه ، وأخذ المصريون عن النيل دأبه ومثابرته ووفاءه ونزوعه المستمر إلى البناء والنفع والخير بلا تفريق ، بل أخذوا عنه خصلة تكاد تكون من أمهات خصالهم وهى النزوع الدائم إلى الوحدة القومية ، فإن النيل الذى يمر من الجنوب إلى الشمال ، أو من الجهة القبلية إلى الجهة البحرية ، يجمع كل البيئات وكل الأقاليم ، وهو بالنسبة إلى مصر ، شريانها الحيوى ، والناظر فى أدب الشعب المصرى يجد بلا كدّ وبلا عناء مصداق ذلك النزوع إلى التوحد .. يجده فى الأساطير القديمة التى جعلت من أوزوريس رمزاً للخير والعلم والنفع ، وجعلته يُنقل إلى خارج حدود مصر إشارة إلى امتداد الرسالة الحضرية المصرية ، إلى مدى أبعد من حدود الوطن المصرى ، فهو الذى نقل معارف الزرع والحصاد وعلّم غير المصريين كيف يبنون آلات الرى ، وكيف يطبّون لأنفسهم ، وينمون إنتاجهم ،

ويؤثرون الخير فى علاقاتهم ، ثم استطردت الأسطورة القديمة فجعلت أوزوريس يُقطّع أشلاء ، تُفرق وتُدفن فى الأقاليم المصرية الأربعة عشرعلى يد النزوع إلى الشر ، فإذا بزوجه تجدّ فى البحث عنه وتظفرُ به فى المرة الأولى ، وتعيده إلى الوطن ، ثم تجدّ فى المرة الثانية ، فتجمع ما تفرق من أشلائه وتدبّ الحياة فى أوصاله مثله فى ذلك مثل النيل يجمع ما تفرق ، ويبعث الحياة ، ويؤثر العلم والخير والبناء .

وفى الأدب الشعبى الذى لا يزال حياً فى قلوب الناس وعقولهم ، ولا يزال مردداً على ألسنتهم ، ملحمة عربية أخذها الشعب المصرى كما يأخذ الفنان موضوعاً بارزاً من موضوعات التاريخ ، أو واقعة عظيمة من وقائع الأبطال ، ولاءَمَ بينها وبين مطالب حياته الوجدانية . وسوف يروعك أن تعلم أن هذه الملحمة تصوّرُ فى صدق أخاذ نزوع الشعب المصرى إلى التوحد بفعل نيله العظيم . . إنها الملحمة التى كان يحفظها أبناء الجيل الماضى من المثقفين وغير المثقفين على السواء ، والتى لا يزال الشعب يطلق أسماء أبطالها على بنيه وبناته ، إنها ملحمة بنى هلال ، فبطلتها اسمها « الجازية » ولسنا فى مقام التوفيق بين هذا الاسم وبين « إيزيس » فذلك تعسف لا غناء فيه ، وحسبنا أن نذكر أن الجازية هى التى تجمع متفرّقات هذه الملحمة ، وهى شريانها الأكبر ، وهى رمز الوفاء للزوج والولد والعشيرة والموطن ، ولا أظن أنها المصادفة وحدها هى التى جعلت تلك الكتلة الخشبية الكبيرة التى تجمع بين « الصغير »

وبين « الكبير » فى « الساقية » المصرية وترمز بذلك إلى وحدة الجهاز كله ، تسمى هى الأخرى بالجازية !

وإلى جانب هذه السّمة البارزة المكتسبة من النيل . . سمة النزوع الأبدى الدائم إلى الاتحاد القومى ، نجد خصيصة أخرى لا تقل عنها خطراً هى أن اختيار النيل لمجراه بين هاتين الصحراوين العظيمتين الشاسعتين جعل الموطن المصرى يحتفظ بأهله ، ويتشبث به ، وجعل الجاذبية البشرية إلى الداخل ، بعكس ما نراها عليه فى أقطار أخرى ، جاذبيتها البشرية ، إلى أطرافها أو إلى خارج حدودها ، وهذه الخصيصة دفعت بالعناصر التى تفدُ إلى الوطن المصرى أو تقدم عليه ، تنطبع إذا استقرت بالطابع المصرى . . وهى الخصيصة التى اشتهرت عن هذا الوطن ، والتى عرفها كل من تعرض لدراسته ، والبحث فى خصائصه ومقوماته . ف « التمصير » صفة أساسية من صفات البيئة المصرية ، أو قل خليقة فطرية من خلائق مصر ، فما من فرد ، وما من مجموعة من الأفراد ، تلبّثوا فى هذا الموضع الفذ حتى نازعتهم أنفسهم إلى الاستقرار ، وما هو إلا جيل أو جيلان وتفنى خصالهم التى جاءوا بها ، وتبرز بدلاً منها الطبيعة المصرية الغلاّبة التى لا تقاوم ، والنيل هو الذى علم المصريين فلاحة الأرض ، ونظمها لهم مواسم ريّ وبذر وحصاد ، وعلى ضفافه نبتت آلة الحضارة الأولى ، وهى ورق البردى ، وأقلام القصب ، فكتب المصريون ، ووصلوا بين آحادهم ، وسجلوا أعمالهم ، وثبتوا تصرّفاتهم ،

ونظموا أملاكهم . . وربطوا ما بين الجيل الشاخص والجيل الذى سبقه ، والجيل الذى يكرّ بعده فتواصلت المعرفة وانتظمت الحياة وكانت خلّة « الاستمرار » المتجدد أبداً ، ميزة أخرى من ميزات النيل التى لا تعد ، وليس صحيحاً ما يزعمه بعض الباحثين الأوروبيين من أن مصر لم تتطور ، فإنها على العكس من هذا تماماً احتفظت بالتواصل بين أجيالها ومراحل تاريخها وفترات سيرتها ، وكانت أمينة كل الأمانة على تراثها ، فلم تكن سلفية خالصة ، ولا ثابتة جامدة ، ولا رجعية تستقبل الحياة بظهرها ، وإنما كانت مستأنية فى تطورها ، مثلها فى ذلك مثل نيلها فى حركته الدائبة فى أناة ، وإذا وضع فى طريقها حاجز ضخم فعلت به ما يفعل النيل ، فسارت فيه أو حطمته ، ومن العجيب أن ورق البردى انقرض من العالم وحلّت محله هذه الأوراق التى تجمعها الكتب بين دفتيها ، وذهب النسخ ، وجاءت المطبعة ولا يزال الاسم الذى أطلق على ورق البردى Papyrus هو الأصل الذى اشتقت منه الأسماء التى تطلق على الورق الحالى فى اللغات الغربية !

وتأتى بعد النيل الظاهرة الكونية الثالثة التى شكلت الحياة فى مصر وجعلتها تميل إلى الاستقرار فى واديها الخصيب أزماناً متطاولة ، وإن لم تعزلها عن العالم حولها ، وهذه الظاهرة هى الصحراء التى تمتد عن يمين النيل وعن شماله فإن هذه الظاهرة هى التى أسبغت على الموطن المصرى ، صفة المحافظة على التراث المادى الشاخص ، فإن تربتها كانت من الجفاف ، ومن الأمانة بحيث تحرص على ما يختزن فيها ليوم قريب

أو بعيد ، وإليها يرجع الفضل فى الاحتفاظ بالأعلاق والنفائس من آثار الأقدمين تشير بذاتها على معارفهم وخبراتهم ، وأمجادهم أيضاً ، وهى التى أعانت على نزوع المصريين القدماء إلى المحافظة على أجداثهم وحوائجهم ، ووصلت بين مصر وبين الجماعات البشرية الأخرى فى الشمال الشرقى والشمال الغربى ، وإذا كانت الصحراء المترامية تكتنفها الأسرار من كل جانب ويتعرض السائر فيها للمكاره والمخاوف فإن مصر تفاعلت من الناحية البشرية عن طريق الصحراء بالشعوب الأخرى ، ومن ثم كانت الصحراء الشرقية بصفة خاصة ، نقطة التفاعل بين الجزيرة العربية بمعناها المتسع وبين الوطن المصرى ، كما كانت الصحراء الغربية فيما بعد نقطة الاتصال بين مصر وبين العرب فى شمال إفريقيا ، وبفضل هذا الموقع بين نقطتى الاتصال هاتين ، أصبح الوطن المصرى نقطة الارتكاز فى العالم العربى .

لم يكن الوطن المصرى إذن ، كما زعم أولئك الباحثون فى عزلة عن العالم ، فقد اتصل بغيره من الأوطان عن طريق الصحراء وعن طريق البحر وأعطى وأخذ ولكنه احتفظ بطابعه المصرى الفذ ، واضطردت الحياة فيه ، واتصل تاريخه منذ أقدم العصور ولم يفرط فى تراثه الحضرى وساير التطور فى ثبات وأناة ، وطبع الشعب الذى عاش فى هذا الوطن بخصال ثابتة ، اكتسبها من خصال شمسه ونيله وصحرائه جميعاً ، وكان ، قدر ما تسمح بذلك الظروف يفيد من العناصر الطبيعية فى التعمير والبناء وينقب عن المعدن النفيس والمفيد فى جوف الصحراء وبطن الجبل . .

فعل ذلك فى دائرة ضيقة عند ما احتكر الخير آحاد وعند ما غلبت عليه عناصر أجنبية آثرت نفسها بكل شيء وسخرته لخدمتها ، وشكّل المادة لراحتها دونه ، ولمتعتها وحدها ، ولقد سبق أن قلنا إن الشخصية الفردية مرتبطة بالشخصية العامة ، وإن اكتشاف المرء لذاته منوط باكتشاف وطنه لأنه لم يعد وطن فرد واحد ، أو حفنة من الآحاد ولم يعد مستعبداً لعنصر أجنبى يستغله ويحتكر ثمراته ، ويعوق تطوره . . إنه وطن الجميع ، إنه وطن أجدادنا ووطننا ووطن أبنائنا وأحفادنا ، فمن واجبنا أن نعرفه كما ينبغى أن تعرف الأوطان ، وهذه المعرفة لا يمكن أن نحصل عليها من الخارج أو نصل إليها من أعلى ، أو نتصور استخلاصها من مجرد الدراسة فى الكتب ، أو من مجرد النظر فى الظواهر والوقوف عند السطوح ، وملاحظة العلاقات والنسب والأشكال والألوان والأحجام والموازين والأنواع ، ولكن هذا الكشف عن الوطن إنما يكون بالعمل الدائب المستمر على بنائه واستغلال جميع طاقاته ، والتنقيب عن جميع كنوزه ، ومصر الثورة تطالب كل مواطن بأن يعرف ذاته معرفته لوطنه ، وتهتف به أن يجد نفسه ووطنه بعد أن تخلصت الحياة من تلك الفردية الضيقة ، والأنانية العشواء ، وقضت على آفة الارتجال التى دفع إليها الافتقار إلى المبادئ والأهداف ، وإنه ليساير فطرة الوطن المصرى فى التآزر والعمل ، ألا يتخلف أحد عن البحث فى الكثبان والأودية والنجاد عن الذهب الأصفر والذهب الأسود ، وعن المعدن المشع ، وعن مادة الصناعة الثقيلة ، وعن إصلاح الرقعة الزراعية والتوسع فيها ، واستخلاص الحركة

من المساقط والسدود ، واستحداث التوازن بين البيئة المادية والبيئة البشرية وإقامة الحياة كما يعلمنا النيل ، وتبصرُنا الشمس ، وتلقننا الصحراء على التكافل والتعاون والتضامن فى سبيل الخير والبناء والحضارة ، وهذا هو الطريق الوحيد المستقيم للكشف عن الوطن وهو — كما قال ماتزينى — فطرة غرسها الله فى القلوب ، ودعوة يهتف بها أبطالنا . . إننا إخوة .

وجدان الشعب

رأينا أن التاريخ وحده لا يمكن أن يطلعنا على وجدان الشعب المصرى، لأنه يصنف الحوادث، ويحتفل بالأسباب والنتائج، ويتسم بالتعميم. وقد أخذ هذا التاريخ فى صورته الرسمية إلى سنوات قليلة خلت، يقص سيرة مصر من قمة الكيان الاجتماعى ويرتب مراحل هذه السيرة بالدول الحاكمة، وإن كانت من عنصر أجنبى لا تربطها بالمجتمع المصرى وحدة أصل، أو علاقة جوار، أو ارتباط تاريخ ومن ثم كان علينا أن نتجه وجهة أخرى وأن نرغب عن التعابير والصور التى صدرت تحقيقاً لوجدان القلة الإقطاعية أو إرضاء لأقيال الحاكم الأجنبى وحاشيته. ولم يكن الشعب المصرى بدعاً بين الشعوب حتى تصح عليه تلك القالة التى وصفه بها لفيف من الدارسين الغربيين عندما ذكروا أنه كغيره من الشعوب العربية عاجز بفطرته عن تصوير وجدانه القومى والتعبير عن ذاتية العامة بالملحمة. وكان هؤلاء الدارسون فى حكمهم هذا، يستقرئون تراثاً قومياً ناقصاً ولا يلتفتون إلى ما أنشأه الشعب لنفسه عن نفسه، وليس من المعقول أن الشعب المصرى الذى اتسم بعراقة الأصل، وطول التاريخ والاستمرار المتجدد على مدى الأجيال الكثيرة المتتابعة لا يحقق شخصيته بالملاحم، وهى التى تبرز – أكثر من أى شىء آخر – وجدان هذا الشعب بجميع خصائصه ومقوماته :

وإن من يتعرض لهذه الملاحم التى صدرت عن الشعب المصرى ، وعاشت قروناً وقروناً ، يدرك أن بعضها فقد وظيفته الأصيلة فى التعبير عن الوجدان القومى ، ولذلك طرحها جانباً ، ونحاها عن تراثه ، وما لبث أن نسيها جملة وتفصيلاً ، ولم يبق منها فى خلده إلا عناوينها ، وبعض صورها وقليل لا يكاد يُعد من أسماء أبطالها ؛ ولكن بعضها الآخر ظل قائماً بعمله فى ترسيب التراث وجمع الكلمة ، ودفع الروح المعنوى ، وشحذ الهمة على العمل ، والاستنفار للدفاع عن الحمى ، فبقى ببقاء وظيفته الحيوية ، وهذه الملاحم ، وإن احتفظت بفاعليتها الاجتماعية والجماعية ، إلا أنها تلائم بين صورتها وبين تطور الحياة العامة ، ولا تنفك تعدل فى وظيفتها بإسقاط حلقات ، وإضافة حلقات أخرى ، وإجمال بعض ما كان مفصلاً ، أو تفصيل بعض ما كان مجملاً وإبراز فضائل تتطلبها فترة معينة ، وتجسيم مُثل تقتضيها مناسبة معينة .

وأول ما تطالعنا به هذه الملاحم الباقية تلك السمة التى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حرفة الشاعر الشعبى ، وهى أن يبدأ حديثه أو شعره الموقع على آلته الموسيقية بالصلاة على النبى وهى ظاهرة لا تحتاج فى تحليلها إلى كثير من التأمل وإنعام النظر ، وبخاصة إذا عرفنا أن الصلاة على النبى تُقرن دائماً بصفة مميزة ، هى « نبى عربى » أو « نبى تهامى » أو « سيد ولد عدنان » وتفسيرها فى إيجاز الوجدان الشعبى المصرى نزع إلى التذكير بالمثل الأعلى فى الحياة الإنسانية أولاً ثم بالتذكر بالعروة الوثقى بينه وبين هذا المثل الأعلى ثانياً ، وهذه العروة الوثقى وهى العروبة وإذا

أضفنا إلى هذه الظاهرة حقيقة أخرى تؤكدها وهى أن الشعب تغنى أمجاده فى سير الفرسان عندما غلب عليه حكام من غير العرب ، أو بعبارة أخرى عندما قبض على ناصية الحياة فى وطنه المماليك والعثمانيون ، فإننا لا نحتاج إلى دليل آخر يقطع بعروبة الوجدان المصرى .

وظهور الشاعر الشعبى ، وازدهار صناعته فى مجتمع من المجتمعات يدل بجلاء من ناحية النفس الجماعية على يقظة الوجدان الشعبى ، ونحن نعلم مما سطرته كتب التاريخ والأدب والتراجم ، ومما ذكره الجوّابون من شرقيين وغربيين ومما سجله المستشرقون من صدور الحفاظ وأهل هذه الحرفة ، أن الشاعر الشعبى كان عالى الصوت فى المجتمع المصرى فى تلك القرون المتتالية ، وأنه يظل يجوب المدن والقرى فى الأعياد والمواسم والحقول العامة بعد الاحتلال الإنجليزى الذى رآه الوجدان الشعبى المصرى امتداداً لحكم غير المصريين ، أو بعبارة أخرى كانت مألوفة فى القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، لحكم غير « أولاد العرب » !

ولقد التمس الشعب المصرى عصر البطولة فى سير فرسان العرب ، ولكنه أخذ هذه السير وعدّل فى وظيفتها القبلية ، وحوّلها إلى وظيفة قومية ، فلم يلق باله كثيراً إلى ما ذكرته تلك السير من أيام ، دفعت إليها هذه العصبية أو تلك ، ولم يحتفل بما قيل من خلاف بين عرب الشمال وعرب الجنوب وانتخب من هؤلاء عنترة وبنى هلال ، وانتخب من أولئك سيف بن ذى يزن ثم أضاف من تاريخه الخاص سيرة الظاهر بيبرس الذى وقف فى وجه الصليبيين والتتار وأنقذ العالم العربى من الحشاشين المتهوسين ،

وغير من واقع التاريخ لكى يلائم بينه وبين واقعه النفسى ، فبرأه من الرق ووصله بالأشراف ، وربطه بالعرب. ولم يكن صنيع الشعب المصرى كصنيع الشعوب الأوربية ، عندما أحست نفوسها القومية ، ونزعت إلى التعبير عن وجداناتها العامة ، فلقد التمست هذه الشعوب مثلها وفضائلها من بطولة يونان ورومان ، وإن كان أكثرها يتصل بهاتين الحضارتين اتصالا روحياً وثقافياً فحسب وليست بينها وبينه صلة رحم ، أو وشيجة قربى . أما الشعب المصرى فعبر عن وجدانه بعد أن استكمل عروبته ، من سير فرسان تربطهم به علاقة قرابة ، ورابطة دم منذ عصر يسبق الفتح العربى بقرون وقرون !

ولعل من الخير أن نقف برهة عند تلك العروق التى شابت أدب الشعب المصرى العربى ، وهى شيوع عنصر الخرافة أو الخروج على المألوف فى صور الأشخاص وأعمالهم خروجاً يسلكها مع الخوارق التى لا تساير القواميس الطبيعية : هذه الخرافة وتلك الخوارق التى لا تخضع لأبعاد الزمان ومقاييس المكان وطاقة البشر إن دلت على شىء فإنما تدل على أن وجدان الشعب ضاق بما يغل إرادته فحاول أن يستعيض عنها فى أحلام يقظته بالقدرة المعجزة على طى الزمان والمكان ، وفتح المغاليق الموصودة ، وحل الطلسمات المجهولة ، كما أن تكرار مشاهد الترف والمبالغة فى تصوير الكنوز الظاهرة والمخبوءة وما تضم من ثمين الجوهر ونفيس الحلى ، والتفنن فى وصف القصور الشاهقة ، والبساتين المزهرة المنسقة والجوارى الحسان ، والموائد المكتظة بشهى الطعام وصنوف الشراب ، كل أولئك

يشير إلى أن الشعب المصرى أراد أن يستعيض بهذا التخييل عن حاجته الملحة وأن ينقذ فى الوقت نفسه احتكار القلة الحاكمة دونه بأطايب العيش ومناعم الحياة .

ونحن كلما تصفحنا جانباً من الأدب الشعبى ، صح عندنا أن وجدان الشعب كان متعلقاً بالمثل الديمقراطية فى الحكم ، ولم يكن شيوع الملوك والأمراء والأقيال فى هذا الأدب ، دليلاً على كمال ولائه لهم ، وتمام رضاه عنهم ، فالطبقة الهندية فى كتاب ألف ليلة وليلة تخير منها الشعب المصرى ما يلائم فلسفته فى الحياة ، فاحتفل بالتعقل فى العمل وفى السلوك ، وبالأناة فى القول وبعدم الشطط فى التصرف والرغبة عن مطاوعة الهوى ، وسورة الغضب ، ونزق اللحظة ، واهتم بالجانب الديمقراطى ممثلاً فى حكمة الناصح للملك أو مجسماً فى رقابة الببغاء على سيدتها ، وما إلى هذا بسبيل. أما الملاحم الشعبية التى تحكى الوجدان المصرى حكاية مباشرة ، فإن الديمقراطية فيها أظهر لأن الفرسان من صميم القومية العربية ، وهم يقومون منها مقام الأب والأخ الأكبر ، فى الأسرة ، وذلك على سبيل الحقيقة لا المجاز . وشخصياتهم حولها الوجدان المصرى إلى شخصيات قومية ، تمثل كل واحدة جانباً من جوانب الحياة العامة ، كالسلطان حسن — فى سيرة بنى هلال مثلاً — أصبح رئيساً للجماعة يصور فضائلها ، ويبرز مثلها وتتخذ فيه سمتها الذى تحب ، فهو الذى يمسك بين يديه عصا التوازن فى الجماعة ، وهو يعطى ولا يأخذ ولا يأنف من المشورة ، ولا يتحرج من طلب النصيحة ، وهو الشعار القومى أيضاً ؛ وتحول أبو زيد من فارس

فى قبيلة إلى قائد بلجيش يقوم على التعبئة والتحصين ودراسة المسالح والمعاقل والتأهب لملاقاة أى مهاجم واختبار قوة العدو ، والتسرب فى صفوفه ، وريادة الطريق قبل أن تتحرك الجماعة فيه وهكذا .

وإذا تحولنا إلى السيرة الثانية التى تحكى وجدان الشعب المصرى حكاية تفصيلية مباشرة أيضاً ، وهى سيرة الظاهر بيبرس ، فإننا نجد العنصر الديمقراطى ظاهراً لا خفاء فيه ، يلمحه المرء فى جميع العناصر ، وجميع الطبقات ، فالرياسة لن تكون بالوراثة كمناصب أشياخ القبيلة فى المجتمع البدوى ، وكمناصب العمد وشيوخ البلد فى المجتمع الحضرى ، إلى عهد جد قريب ، ولكنها كانت ثمرة التفانى فى الخدمة العامة ، والتبريز فى الدفاع عن مصالح المجموع ، والانتصار فى مدافعة العدو . وكانت طريقة الوصول إليها مُستخلصة من أبرز عمل يقوم به الأفراد فى الجماعة ، فهى عند الفرسان التفوق فى الفروسية ، وهذا التفوق يحصله أصحابه بالتطبيق العملى فى مجال علنى ترقبه الجماعة وتشهد عليه ، وهى عند غير الفرسان التبريز فى أمجد ما يصبو الأفراد إليه من جهد فى نظر الجماعة .. ولم يكن الوقوف فى وجه العدو حظاً مقسوماً على فريق من المجتمع دون فريق ، ولكنه كان فرض عين على جميع الأفراد القادرين بلا استثناء ، وعلى الرغم من توزع الشعوب العربية والإسلامية ، فإنها كانت تبدو ، فى هده السيرة وفى غيرها ، عالماً موحداً تكاد ترتفع بين أجزائه الحواجز والحدود ، ومعنى هذا أن الوجدان الشعبى كان أوسع مدى من الحدود الجغرافية للوطن المصرى ، وأنه كان يصل بين الوطنية والقومية والدين بسبب قوىّ لا يمكن أن يَنْفصم.

ولما كانت هذه الملاحم ذوات وظائف حيوية وإيجابية ، فإن الشعب المصرى شارك فى إنشائها بتعديل صورتها ، بحيث تلائم طبيعته ومزاجه من ناحية ، وبحيث تساير رأيه فى نفسه ، وفى أبناء عمومته ، وملّته من ناحية أخرى ، والوجدان الشعبىّ المصرى يقوم من هذه الملاحم مقاماً مُزدوجاً ، يعبر بها عن ذاتيته العامة ، ويتذوقها ويتفاعل معها ، ويتأثر بها أيضاً . فهو المؤلف والمتذوّق فى آن واحد ، ولا حاجز عنده بين العملين ، ولا فارق بين الموْقفين . . إنها زاويةٌ واحدة ينظر منها إلى نفسه ، وهو يصوّر هذه النفس ، ومن ثم التقى فى وجدانه تجسيم المثل العليا ، وتشخيص الفضائل الثابتة كما يتصوّرُها بنقده لحياته ، وحياة من حوله ، وهو يرسم نقداته لبعض الخصال وبعض الفعال ، رسماً قريباً من الكاريكاتور ، يُضخم خصلةً ، ويبرز خليقة ، ويُبالغ فى إبعاد ما يُريد أن يُظهر نفسه عليه . وصنيع الوجدان الشعبى فى صدق إحساسه بواقعه ، وإدراكه لبعض عيوبه يجعله نزّاعاً إلى الإصلاح ، راغباً فى التطوّر ، متمثلاً لكمال الممكن ، مُنفّساً عن ضيقه ببعض ظروفه ، ومتخلصاً من بعض همومه أيضاً ، حتى يستطيع أن يمضى لطيته مجدّدَ العزم ، حُرّ الإرادة . وأعانه على هذه السّليقة الناقدة فيه ، قدرته البارعة على أن يفصل بين نفسه المتألمة أو المنزعجة أو الساخطة وبين الظروف أو المشاهد التى أدّت إلى ألمه وانزعاجه وسخطه ، وبهذه الوسيلة يحوّل الوجدان مأساته إلى ملْهاة ، يستعلى عليها ، ولا يمل من التأمل فيها ثم يأخذ بعد هذا كله فى السخرية منها والتّهكم عليها . ونحن نرى مصداق ذلك ، لا فى الملاحم فحسب ، ولكننا نراه فى شخصية

« جحا » التى أصبحت على الأيام رمزاً مصرياً ، مثله فى ذلك مثل الشخصيات القومية الأخرى التى ترمز على شعوبها كوليم الطحان ومن إليه . ونرى مصداق ذلك أيضاً فيما أُثر عن الشعب المصرى من كلف شديد بالنكتة الساخرة يرسلها فى أعصب وقت ، وأحرج موقف ، وأحلك مناسبة . وإذا أردنا أن نحلل الوجدان الشعبى فى هذا الصنيع فإننا نلاحظ أولاً وقبل كل شىء أن تطاول المحن على الشعب وأن محاولاته الكثيرة فى التخلص منها كانت تسلمه فى بعض الأحيان إلى محن أخرى ومحاولات أخرى ، فوقع فى وجدانه أيام احتكر القلة رزقه ، وأيام اغتصب الأجانب الوافدون أرضه ، وأيام سخره أولئك وهؤلاء تسخيرهم لرقيق الأرض يعيش على الكفاف ، ويرى نفسه الجامعة ، وآحاده المفرقة تكاد لا تعى وجودها ولا تشعر بحياتها ، وكأنما تمتد فى الزمان ، وتتحرك فى المكان بلا غاية وبلا قيمة وبلا عائدة . نعم وقع فى وجدانه ما يشبه اليأس ، فضعف إيمانه بالعقل ، واطمأن إلى المصادفة ، واحتقر المنطق ، واستخف بالمقدمات والنتائج ، واستهان بالعلل ، وأصبح أدنى إلى إلغاء إرادته ، والاطمئنان إلى القدر الذى يتصرف فيه ، وإلى الاعتقاد بالحظ المكتوب على جبينه ، والركون إلى المقسوم . بيد أن هذا كله كان يتبدّد إذا لمح فى الأفق بارقة أمل فى منقذ ، كما أنه لا ينسى قط حُلمه الدائم فى أن مخلصاً معيناً فى زمن معين سيغير هاتيك الظروف ، ويحطم تلك الأغلال ويرفع هذه الحواجز ، ويتيح له أن يعيش كما فطره الله حرًّا كريماً على الحياه وعلى الأحياء حوله .

والنماذج البشرية التى تجسم الخصال القومية والإقليمية ، هى التى تؤلف النكتة المصرية إلى جانب الخروج على منطق العقل ، وإلى جانب المماثلة والمشاكلة والمقابلة فى الألفاظ والمعانى . فأنت تجد النموذج المصرى العام يجمع بين الفضائل التى يحبها الوجدان المصرى فى ذاته والعيوب التى ينزع جاهداً إلى التخلص منها ، وهذا التصوير على تعميمه يقترب من الواقعية ، فهو ذكى الفؤاد ، يفهم الشاردة والواردة والسانحة ، ولا يحتاج حتى إلى مجرد الإشارة ، وهو كريم يُعطى ولو كان مُفتقرا إلى ما يُعطيه ، هو ودُودٌ يحب الناس ، وهو صاحب مروءة وشهامة ونجدة . . وهذه فضائل يمجدها فى نفسه ، ولكنه لا ينسى أنه كثيراً ما يطيع عاطفته وهواه ، وأنه متلاف يذهب بالحادث والتليد ، وإنه يحتفل باللحظة التى هو فيها ، لا يفكر أبداً فى اللحظة التى تعقبها ، إنه يعيش ليومه ولا يذكر غده ، وهذا النموذج المصرى العام ، تتفرّع عنه نماذج أخرى تحكى فضائل البيئات الخاصة والطبقات الخاصة ، والمهن الخاصة ، وتزاوج كما هو شأن النموذج العام ، بين المثل المرْجوّة ، وبين الواقع المنقود ، وحول هذه النماذج المصرية نماذج أخرى ، تصور ما بين المصرى وبين أبناء عمومته من وشائج قربى ، وتلتقى فيها أيضاً الفضائل بالعيوب ، مسايرة لنزوع الحياة إلى الكمال الممكن ، وإلى جانب هذه النماذج وتلك صور مجملة وإن كانت ذوات دلالة تجسم الشعوب الأجنبية والدول غير العربية وغير الإسلامية فى تربصها وحيلتها وموقفها من العالم الإسلامى ، والوطن العربى ، والقطر المصرى . .

وأدتْ هذه الخصلة فى الاستعلاء على الحياة ، ومحاولة الخروج من إطارها ، والاكتفاء بالتفرج عليها ، والاستخفاف بقيمة العقل ، والكلف بالنقد الساخر المتهكم ، إلى أن يغلب الحزن على الوجدان الشعبى ، فهو الذى يطبع جميع أغانيه ومواويله بطابعه ، وهو الذى أدى إلى هذه الصرخات والأنات والتأوهات التى تزدحم بها هذه الأغانى ، وتلك المواويل ، ولكنه حزن مُبهمٌ غير واضح ، ومجملٌ غير مفصّل ، مهما كانت الألفاظ والعبارات ، ومهما كانت الموضوعات والأغراض ، ولو أن الوجدان الشعبى ، لم يواجه تلك الحقبة الطويلة من الظلم ، والاستعباد والتسخير وأقبل على الحياة كما ينبغى ، لتغيّرت نبرته وموسيقاه ، ولأصبح هزجاً يؤثر النغم المتقارب السريع الذى يحكى إشباع العواطف ، والرضى بالواقع ، وإكبار الحياة ، ولأصبحت الألفاظ والعبارات فى الأغانى والمواويل تدل مباشرة على القدرة الفردية والقومية ، وعلى إرادة تعبير الواقع الذى لا يرضيه ، وعلى التفاؤل باللحظة التالية ، والغد التالى ، والابتسام للوجود الذى يملك أن يلائم بين حياته وبينه ، والذى يستطيع أن يفيد منه ، وأن يؤثر فيه كما يتأثر به .

ولكم مرّت بهذا الوجدان القومى لحظات يحس فيها باتساع أفقه ، فيغمره الإشراق ، ويملؤه الأمل ، ويدفعه إلى ما يشبه المعجزات . . ومن هذه اللحظات يكاد يتلاشى أنينه ، ويذوب ألمه ، وتذهب عنه أناته ، وتأوهاته ، ويتحول غناؤه الحزين إلى نشيد حماسى ، ولا يصبح غناء فرديًّا ، يتناقله الآحاد المفرّدون هنا وهناك ، وإنما يصبح ترديداً جماعيًّا

يعبر عن الوجدان الجماعى تعبيراً مباشراً. وإذا كان الإحجام عن التآزر، وعدم الإقبال على الحياة ، ومحاولة التغلب على صعابها ، لا يساير الطبيعة المصرية الثابتة ، فإن الوجدان يحتفظ على الرغم من الظروف ، بفطرته الأصيلة فى النزوع إلى التوحد ، والتنظيم ، والبناء ، والعمل المتواصل من سبيل الأجيال ، وليس صحيحاً ما قيل عن هذا الوجدان من إيثار الاستسلام والرضى الكامل ، بما يُفرض عليه من خارج أقطاره ، فالشعب المصرى أقدم شعب فى التاريخ ، وهو الذى نهض بأقدم ثورة فى التاريخ ، وأحدث ثورة فى التاريخ ، فأما الأولى التى كانت منذ آلاف السنين فى الدولة الفرعونية القديمة ، فلم يسجلها الثائرون المنتصرون ، وهم الشعب نفسه ، وإنما سجّلها المنهزمون ، وصوّروا وقعها عليهم ، وتأثيرها فيهم ، وأما الثانية فكانت التعبير الصادق عن فطرة البيئة المصرية ، والوجدان الشعبى المصرى ، انتقاماً للحياة من الواقفين فى سبيلها ، وانتصاراً للتاريخ الشعبى الصحيح الذى يُدرك الكيان الاجتماعىّ بأسره ، من سفحه إلى قمته . وبجميع لبناته التى يتألف منها ، وسوف تتعدل صور الملاحم الشعبية التى بقيت ، بتعدّل وظائفها ، فى المجتمع الحديث ، وسوف تبرز خصائص الوطنية المصرية بمثلها المستخلصة من البيئة المادية ، والبيئة البشرية ، والمستوحاة من القومية العربية ، والفكرة الإسلامية وتحتفظ الفطرة المصرية بمقوماتها الثابتة ، ولم يعد هناك ما يعوق الوجدان الشعبى عن تحقيق شخصيته ، ولن يدفعه الكبت والخوف والحرمان ، إلى الوقوف من الحياة موقف المتفرج عليها ، المتندر بها ، الساخر منها ، ولا موقف الحزين

المتضرّع الذى يجترُّ ألمه ، ويقتات بدموعه ، وينتظر من خارج وجوده الغوث والإنقاذ .

ولقد آن الأوان لكى نعمل على جمع تراثنا الشعبى ، والنظر فى بواعثه وصوره ووظائفه . . نعم آن الأوان لكى نقوم بمساحة تفصيلية لثقافتنا القومية لكى نكون أكثر إحساساً بأنفسنا المفردة ، ونفسنا الجامعة ، وأن نذكر أن هذا الجمع والتصنيف ، والتحليل لا بد منه إلى جانب اكتشاف الجانب المادى من موطن شعبنا العريق ، وأن نذكر أيضاً أن هذا التراث الثقافى يتسم بالوحدة التى تتسم بها أمتنا ، وأنه كل متجانس ومتفاعل لا ينقسم بانقسام العصبيات الصغيرة ، والأنظار الخاصة ، والطبقات الاجتماعية ، وهذا التراث الثقافى يندرج فيه الأثر المادىّ الشاخص ، والأثر المدوّن والأثر الدائر على الألسنة ، والأثر المحفوظ فى الصدور . ويوم يتم ذلك يكملُ علمنا بوجداننا الشعبى ، ويتأكد فى نفوسنا وعقولنا ، أننا أبناء ماض واحد ، وحاضر واحد ، ومستقبل واحد وأن كلّ فرد منا ، يطوى فى نفسه تجربة الحياة منذ أحقاب وأحقاب ، وأنه صورة مصغرة من الوجدان العام ، وأن عمله لنفسه ، يحمل فى تضاعيفه عمله لقومه ، وأن نهوضه بالخدمة العامة فيه النفع الذى يعود على شخصه ، ولنترك وجدان الشعب لننظر فى وسيلة هذا الوجدان إلى الظهور والتماسك عبر الزمان وعبر المكان .

لغتُنا القوميّة

ونحن كلما قرأنا القصص الشعبى القديم ، وهو القصصى الذى انحدر عن مكانه الاجتماعى ، وفقد وظيفته الإيجابية فى تفسير الحياة .، وظواهر الكون ، وأصبح أدنى إلى الخرافة منه إلى الحقيقة ، ولم يعد يحتفل به غير الأطفال والدهماء ، واجهتنا تلك الأسماء والألفاظ التى تحمل فى مخارجها وحروفها قدرة سحرية عجيبة ، تقوم لقائليها بخوارق الفعال ، فتفتح لهم الأبواب الموصدة ، وتبنى لهم الدور الشاهقة ، وتحملهم عبر الجبال والبحار إلى حيث يعلمون أو لا يعلمون . وليس هناك ما يفسر قيمة هذه الجارحة الاجتماعية الكبرى أعظم من هاتيك القصص . والجارحة التى نعنيها ، هى « اللغة » ومن الكلام المردّد أننا كائنات ناطقة وأننا نتميزُ عن غيرنا من الأحياء بالنطق ، فاللغة قوام إنسانيتنا وهى أكبر وسيلة نحقق بها شخصياتنا المفردة ، والجماعية على السواء ، وهى والفكر بأوسع معانيه شيء واحد ، بهما أصبح الإنسان إنسانا ، والمرء مهما جهد ، لا يستطيع التفكير المجرّد عن اللغة ، أو بمعنى آخر ، إن المرء يفكر باللغة ، ولا يمكن أن تفصل الفكر عن اللغة بحال من الأحوال .

واللغة فوق هذا كله هى التى أعانت الإنسان على أن يكون اجتماعيًّا .. إنها ثمرة اجتماعية ، وسبب اجتماعه فى آن واحد ، فهى التى تصله بغيره آحاداً وقبيلا ، وما من مجتمع متجانس إلا وكانت لغته الخاصة ، هى

العروة الوثقى بين عناصره وأفراده ، وضعف هذه اللغة يُشير بذاته إلى ضعف المجتمع الذى يصطنعها ، وإذا عجز مجتمع من المجتمعات عن الملاءمة بينه وبين البيئة التى استقر فيها ، وبين الحياة حوله ، وأصابته الشيخوخة فإن لغته ، تشيخ هى الأخرى ، وكما يفنى هذا المجتمع فى غيره ، تفنى لغته فى لغة أخرى ، وإذا تحول عن بيئته الأولى إلى بيئة ثانية ، واستقرت فيها أجياله ، زمانا ، فإن لغته تأخذ من بيئته الجديدة خصائص جديدة ، وإن بقيت عروق من بيئته الأولى تستعمل إلى حين . وإذا نهض المجتمع وتكاثرت عناصره واتسعت الرقعة التى يعيش فيها ، قويت لغته واتسعت وغلبت على ما كان قبلها . .

واللغة بهذا المفهوم ليست منطقاً صورياً يُتوسل به فى ضبط جهاز التّعقل ، ونقل الأفكار ، ولكنها أوسع من ذلك مدى بكثير ، وهى ليست مجرّد المخارج والأصوات المحددة ، والكلمات والعبارات المحددة ، والمعانى والدلالات المحدّدة ، وإنما هى كل ما اصطلح المجتمع عليه للإبانة عن وجدانه العام ، ووجدان أفراده ، فهى تنتظم إشارات أخرى ، وأمارات أخرى ، وتندمج فيها حركات تقوم بها الجوارح ، وتدخل فيها دلالات ألوان ، وأشياء وأصوات غير التى تصدر عن اللسان ، وقوامها إلى جانب التلفظ ، عادات ومراسيم واصطلاحات تعبر عن فعل الجماعة ، وفكر الجماعة ووجدان الجماعة فى مختلف الشئون .

ومع هذا كله فنحن نقتصر فى هذا المقام على جارحة اللسان الإنسانى ، وننظر فى علاقة هذه الجارحة بمجتمعنا الكبير ، ومجتمعاتنا الصغيرة ،

فلغتنا القومية – كما فهمها القدماء – هى لسانا القومى ، أو بتعبير آخر لساننا الجماعى . . إنها ليست لهجة خاصة تمتاز من غيرها بأنها لهجة الطبقات العليا ، وليست امتياز إقليم من أقاليم الوطن الكبير ، وليست تعصبًّا لبادية أو حاضرة أو قبيل ، ولكنها كل اللهجات التى يتلاغى بها المواطنون ، وأبناء عمومتهم فى الوطن العربى الكبير .

وليس ينبغى أن نحتكم فى هذه اللغة إلى معيار تاريخى ، فنجعل لها مثلاً إنسانيًّا ماضياً لا ينبغى أن نتجاوزه ، فاللغة مستمرة ومتواصلة باستمرار مجتمعها وتواصل سيرته ، وليس يناقض طبيعة اللغة أكثر من شدّها إلى أسطورة « العصر الذهبى » ، أيًّا كان هذا العصر ، وأيًّا كانت الحياة الاجتماعية فيه ، ذلك لأن المجتمع فى لحظته الرّاهنة قد تطوّر وتعدل ، عمّا كان منذ قرون ، وصور الحياة قد اختلفت عما كانت فى ذلك العصر الذى يُنعت بالذهبى ، وليس ينبغى كذلك أن يحتكم فى اللغة القومية احتكاما جغرافيًّا يجعل مثلها الأعلى فى إقليم دون سائر الأقالم التى يعيش فيها المجتمع أيًّا كان هذا الأقليم ، ومن الخير أن نعرف هذه اللغة بفطرتها الاجتماعية ، وألا نشدّها بوسيلة مصطنعة إلى فترة مضت ، أو إقليم جزئى محدود ، وأن نُعينها على السير فى طريقها بأن ننهض بمجتمعها فإنها لا تنفصل عنه ، وهو ما دام حيًّا فاعلا ، لا يستطيع أن ينفصل عنها .

وكما أن للمجتمع علاقاته بالمجتمعات الأخرى ، يأخذ منها ويعطيها فكذلك اللغة تحكى هذه العلاقات بما تأخذه من المجتمعات الأخرى ، وبما تعطى هذه المجتمعات ، وليست هناك لغة لم تأخذ من غيرها ، ولم

تعط غيرها ، اللهم إلا تلك الجزر البشرية التى أريد لها أن تعيش فى عزلة ، فهى وحدها التى تحتفظ بلغتها بلا تغير أو تبديل فى صورها ودلالاتها ، ولغتنا القومية قد أعطت اللغات الأوروبية ، التى تبسط رقعتها على قارات شاسعة كثيراً من الألفاظ الدالة على العلم والتجربة ، واستقرت هذه الألفاظ وهى كثيرة فى المعجم الحىّ لهذه اللغات ، واحتفظ بعضها بصورته العربية ، وإن دوّن بحروف لاتينية ، وتعدل بعضها الآخر ، وبقيت فيه دلائل على أصله العربى ، وتغير باقيها تغيراً جعل من المتعذر حتى على الدارس المتخصص أن يعرف أصلها العربى .

والمجتمع هو الذى يشكل لغته ، ويوزعها على طبقاته وعناصره ، ومن ثم تنتظم لغته لهجمات إقليمية وطبقية ومهنية أيضا ، وهذه اللهجات تعيش ما عاش المجتمع بصورته ، ويبقى بعضها ، ويفنى بعضها الآخر ، ويتداخل بعضها فى بعض ، ويأخذ بعضها من بعض . وإلى جانب هذه اللهجات تبرز لهجة معينة ، وتصبح اللهجة التى تجمع الأقاليم ، والطبقات ، والمهن ، وهذه اللهجة هى العروة الوثقى فى المجتمع كله ، وهى شريانه الحيوى ، تقوى بقوة نزوعه إلى الوحدة وهى مرنة ، تأخذ من اللغات الأخرى وتعطيها ، وتحافظ فى الوقت نفسه على قوامها المتميز ، وتدافع عن وجودها ، مدافعة مجتمعها عن وجوده ! !

ولو عُرفت هذه الحقائق على وجهها ، وعُرف معها قوة النزوع إلى الاتحاد القومى خفّ ذلك الإحساس الذى يستشعره المثقفون بمشكلة اللغة ، فقد واجهوا أوّلاً : اختلاف اللهجات فى الوطن العربى الكبير ،

وهى لهجات تتقارب وتتباعد بتقارب الوحدات الإقليمية وتباعُدِها ، وواجهوا ثانيا : ذلك الاختلاف الظاهر بين اللهجة الفصحى واللهجات التى تُسمَّى بالعامية ، وهو اختلاف يجعل الواحد منهم يضطر إلى أن يفكر بلهجة ، ويكتب بلهجة أخرى ، وواجهوا ثالثاً : توقف المعجم اللغوى منذ قرون ، وعدم زيادته على الرغم من تواصل الحياة الاجتماعية الحضارية فلما التقى العالم العربى بالعالم الغربى ، وشهد تطور العلوم ، ورقى الصناعة ، وجد نفسه عاجزاً عن حكايتها بلغته ، ووقع فى حيرة بين النحت والتعريب والنقل .

وليس نزوع المجتمع العربى الكبير إلى الوحْدة ، عملاً سياسيًّا بالمعنى القديم للفظ « السياسة » ، وليس استْجابة لوجدان القومية العربية فحسب ، ولكنه توجيه الحياة فى هذا العصر بعد أن ارتفعت الحواجز الجغرافية بفعل وسائل الاتصال الحديثة التى غيَّرت معدّل المسافة بين الأقطار ، وقرّبت الأبعاد إلى مدى كان يُعدُّ فى القرن الماضى فقط من الخوارق ، وأصبح الآن من اليسير أن يُفطرَ المرء فى قطر ، وأن يتناول غداءه فى قطر آخر ، وعشاءه فى قطر ثالث ، ويسّرت الطباعة والصحافة التقارب بين العقول والقلوب فى الجماعة الناطقة بلغة واحدة مهما اتسعت أقطارها ، وبفضلهما تحوّلت الثقافة من امتياز لا يحصُلُ عليه إلا الأغنياء الواجدون ، إلى سبب من أسباب الديمقراطية يستطيع أن يحصلها الأكثرون بالتعليم ، ثم دخل إلى الميدان ، ذلك العامل اللغوى الخطير الذى يكاد يسوّى بين الناس فى المعرفة والذوق الفنى ، ونعنى به الراديو الذى يُوحِّد الألسنة ،

ويطبعها على النموذج الذى اصطلحت عليه الجماعة وارتضته ، وهذا الراديو جعل لكل جماعة جارحتها الناطقة على سبيل الحقيقة لا على سبيل المجاز ، وكما أن لكل فرد لسانه الذى ينطق به ، فإن لكل جماعة لسانها الذى تنطق به ، وهو جهاز إذاعتها ، فالتقارب بين اللهجات إذاً ، واقع لا شك فيه ، وهو يحدث بنظام وقوة وسرعة ، وكل ما فى الأمر أن نُعين هذا التقارب على أن يبلغ غايته، وأن نسايرَه ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، وألا نقاومه بحال من الأحوال ، وإن استطعنا أن نشحذ حركته ، ونحث خطاه بعجلة متزايدة السرعة ، كان التوحُّد بين اللهجات أمراً قريبا ، وأقرب مما يتصوّر المتفائلون أنفسهم .

ويكثر الجدل بين المثقفين حول الاختلاف بين لهجة الحديث ، ولهجة الكتابة ، وكان الإحساس بهذه المشكلة حاداً فى الجيل الماضى عندما بدأت صور فنية جديدة فى الأدب العربى كالدرامة والقصة ، وحاجتهما إلى الحوار ، ومدى حكاية هذا الحوار للواقع ، وفطن بعضهم إلى الحقيقة التى سقناها ، وهى أن اللهجات التى تنعت بالعامية ، لهجات عربية ، وليس ينبغى أن تقاس فى نحوها وصرفها ، على لهجة أخرى ، وأدت الدراسة ببعضهم الآخر إلى أن يستخلص من المعجم العربى القديم كثيراً من الألفاظ والعبارات التى تدور على ألسنة الناس فى أقاليم مختلفة ، ومن ثم كان التقارب بين اللهجة الفصحى وبين لهجة الحديث ، وأصبح من اليسير على الأدباء أن يصلوا إلى لغة متوسطة يفهمها المتعلمون وغير المتعلمين على السواء ، وتحتفظ فى الوقت نفسه بخصائص اللهجة الفصحى ،

فى الإعراب والاشتقاق والتصريف ، ولن يمضى وقت طويل حتى تُصقل اللهجات المستعملة فى الحديث ، وتتقارب وترتقى إلى مجال التعبير الفنى ويراها أصحاب المواهب خليقة الاعتبار ، وتعين السينما ، والراديو ، كما تعين الصحافة من ناحية أخرى على بلوغ هذا الهدف القريب .

ولكننا نرى لزاماً علينا قبل أن ننتقل إلى المظهر الثالث من مظاهر ما يسمى بالمشكلة اللغوية ، أن نقرر حقيقة تغيب أحياناً على الدارسين ، وهى أن الثقافة ليس معناها التراث المدون فى الكتب فقط ، ولكنها إلى جانب هذا ، وفوق هذا ، مجموعة من الصور والتعابير والعلاقات والتجارب والخبرات غير المحفوظة فى الطروس ، وإنما يتلقاها الأفراد بالمحاكاة والتلقين ، والدُّرْبة ، وانقسام المجتمع إلى مثقفين وغير مثقفين انقسام غير صحيح ، ولا وجود له لأن جميع الأفراد بهذا المفهوم الاجتماعى مثقفون تتفاوت أنواع ثقافاتهم ودرجاتها . وانقسام المجتمع إلى أميين وغير أميين ، انقسام لا يقوم على مجرد العلم بالقراءة والكتابة ، وإنما يقوم على ما يكسبُه هذا العلم أصحابه من قدْرات وخبْرات وما يدفعهم إليه من مقام ملحوظ فى مجتمعهم ، ولذلك كان التراث الثقافى القومى هو تراث الجميع ، متعلمين للقراءة والكتابة ، ومثقفين من الحياة با لحياة .

وهذه الحقيقة البارزة ، تدفعنا إلى إمعان النظر فى مهمة معلم اللغة الذى يُدفع الصبىّ إليه فى العام السابع من عمره وربما قبل ذلك ، فإن هذا المعلم ينبغى ألا يسلخه فجأة من بيئته ومجتمعه ، وينقله نقلا ، إلى لهجة جديدة عليه ، تجعله يُحس بالازدواج اللغوى حتى يصبح مثله كمثل

الأجنبي يتحدث فى بيته بلغة وفى الطريق بلغة أخرى ، ويستقر فى نفس الصبى أن اللهجتين تختلفان نوعا ، أو درجة ولا يحس بما بينهما من تقارب شديد ويستمر يعانى « الإثْنَيْنِيّة » فى شخصيته وفى وجدانه فهو عندما يتكلم يختلف عنه وهو يكتب. وعلى المعلم أيضاً أن يدرك ويفيد من تقارب اللهجتين ، وأن ينآى بجانبه عن النظر المنطقى العقلى إلى اللغة ، وأن يخلفها من « اللامساس » الذى صحبها ، ويبرئها من التقنين والتعقيد ، الذى كان يشل حركتها ، والذى أقام علاقاتها وتصاريفها على فروض لم يكن لها وجود فى الواقع اللغوى ، وكلما قربت الكتابة من الحديث كانت أقوى تعبيراً عن وجدان الفرد ، ووجدان الجماعة ، وأفعل فى التقريب بين مختلف اللهجات ، حتى يبلغ المجتمع غايته المرجوة فى تمام التوحّد اللغوى .

وأعجب المشكلات التى واجهها المجتمع العربى بعامة ، والمجتمع المصرى بخاصة ، إنما هى تعطل المعجم اللغوى عن القيام بوظيفته الحيوية ، فإن هذا المعجم ليس كتابا جامعا للمفردات والاشتقاقات والدلالات ، صنّفه فرد مجتهد ، ولكنه الرصيد اللغوى للمجتمع كله. ولما كان المجتمع حيّا طويل العُمُر ، متشعب المسالك ، متداخل العلاقات كان هذا الرصيد ضخما ، معقدا ، متشعبا ، ومتداخلا ، وهو كالعملة التى يتداولها الناس فى الحصول على الأشياء والخدمات ، تتغير صورها ، وتتعدّل قيمتها ، ويضاف إليها ، ويسقط منها . . يضاف إليها ما يحس المجتمع أنه محتاج إليه ، ويسقط منها ما لم تعد له فائدة فى حياته ، ولذلك كان من الضرورى ، أن يكون لكل عصر معجمه الحى الذى يضم رصيده

اللغوى ، ولكننا فتحنا أعيننا فلم نجد لنا هذا المعجم الحى ، وإنما وجدنا معاجم قديمة ، ضمت رصيداً ضرب فى إقليم بذاته ، وفى عصر بذاته ، وأعيدت هذه المعادن القديمة إلى الاستعمال ، ونحن نعترف بأن كثيراً مما ادّخرته ، لا يزال حيًّا فعالا ، ولكننا نعترف كذلك بأن صوراً لفظية تعدلت وتغيرت وصوراً أخرى أضيفت أو انقرضت ، كما أن الدلالات أصابها التطور فيما أصاب ، ومن العجيب أن يستعمل المتفننون المحدثون من السفراء والناثرين هذه المعاجم القديمة بصورها ودلالاتها القديمة ، وأن النقاد والشارحين للأدب الحديث يحتكمون فى فهم النصوص المعاصرة إلى تلك المعاجم ذات القيمة التاريخية دون أن يدخلوا فى حسابهم العمر الطويل الذى انقضى منذ جُمعت ، وأخطر من هذا وذاك ، ما أحسته الحياة ، من فقر لغوى ، وهى تواجه العلوم الحديثة ، والفنون الحديثة ، والمخترعات الحديثة ، ولا تزال جامعاتنا تدرس بعض موادها باللغات الأجنبية ، ويقوم بذلك مواطنون مصريون من أولاد العرب »! وهم معذورون . وينهض المجمع اللغوى بالعبء ويمرّ بتجارب كثيرة بين تقنين ونحت ونقل ، وينشط المعلمون والمترجمون فيضيفوا إلى المعجم الحى المئات من المصطلحات والتعابير ، ولكنها جهود مهما عظمت يُعوزها التوجيه والتنسيق ، ونحن مطمئنون إلى أن المجتمع فى فترته المجيدة هذه ، سيخلص المعجم العربى الحى من الجمود ، ومن الارتجال ، وسيوحّدُ بين العاملين فى المجال اللغوى لكى تساير اللغة نهضة المجتمع ، ولكى تُصبح كما كانت فى الماضى وكما يجب أن تكون إلى شخصيته تحقيق وسيلة العامة ، وشخصيات أفراده .

عادات وتقاليد

. . وإذا نحن تأملنا فى أنفسنا أفراداً وجماعات ، ونظرنا إلى ما نقوم به طوال النهار ، وشطراً من الليل ، فإننا نجد أن أكثر هذه الفعال ، اكتسبناه عن الجماعة بالمحاكاة والتلقين وما إليها ، وقليلا ما نفكر فى هذه الفعال . . من أين أتت ؟ .. ما هى بواعثها ؟ .. ما غاياتها ؟ . .مانفعها؟. والواقع أننا نصدر فى حياتنا عن نموذج عام ، وأننا نخضع لعادات وتقاليد رسّبها المجتمع ، وحافظ عليها ، واعتبرها جزءاً لا يتجزأ عن قوامه ، ومن علاقاته ، وهى تقوم فيه وله بوظائف حيوية فعالة ، وإن كنا لا نعى هذه الوظائف فى كثير من الأحيان . وهذه العادات ، وتلك التقاليد هى إطار ميراثنا الثقافى الجماعى ، وهى تؤلف بنوداً أقوى القوانين ، وأشدها إلزاماً للخاضعين له ، وهى بمثابة قانون غير مكتوب ، لأن المجتمع يراها أقوى من أن تحتاج إلى تسجيل ، ولأن أفراد المجتمع ، يعرفونها فى أنفسهم ، ويلتزمونها فى سلوكهم دون أن يستشعروا ضرورة تدوينها . .

وواجهت المجتمع المصرى فى مطلع العصر الحديث ، مشكلة جعلته يتوقف ويتحير ، ويتساءل عن هذه العادات والتقاليدفقد اتصل بالحضارة الغربية ، ووجد فيها عادات أخرى وتقاليد أخرى ، تختلف فى بواعثها وصورها ووظائفها عمّا ألفه فى أطوائه ، وتطوّر المجتمع المصرى بفعل هذا الاتصال الحضرى، وما استحدثه من صراع ، ومقاومة ، وتسرُّب ، وكان

لزاماً عليه أن يعدّل فى بعض عاداته وتقاليده، بحيث تلائم تطوره، وانقسمت الطبقات المفكرة ، إلى قسمين ، أحدهما يتشبث بالواقع المألوف ، وثانيهما يدعو إلى الأخذ جملة أو إلى الانتخاب من العادات الجديدة غير المألوفة ، والتقاليد الوافدة غير المتمثلة ما يلائم نزوع المجتمع إلى التقدم . . وسار المجتمع فى طريقه فأخذ من القديم والحديث ما ساغه ذوقه ، وأحس بنفعه العام له ، وكانت طبقات المجتمع تتفاوت فى درجات المحافظة والأخذ جميعاً، وتغيرت أنماط وأزياء وطقوس ومراسيم ، وبقى الجديد على سطح الكيان الاجتماعى ولم ينفذ منه إلا قليلا ، وظل القديم الصالح واضحاً يعمل عمله ، وكمن ما تصور البعض أنه غير صالح فى أطوار المجتمع ، ولم تنعدم وظيفته انعداماً تامًّا ، ومن هنا تحول التفاعل بين التّليد والطارف إلى ما يشبه الصراع النفسى فى أطواء الوجدان الشعبى ، وفى مكنون الوجدان الفردى معاً ، وصور الأدب الفصيح والشعبى جميعاً هذا الصراع ، وشغل العلماء به فى كل مجال يرْصدونه، ويصنّفون عناصره، ويدعو بعضهم إلى رأى معين فيه ، ولو أن الجميع ، التفتوا إلى وظائف العادات والتقاليد ، لأعانوا التطور ، وخففوا عن الوجدان عبء الصراع ، وقللوا من ضحاياه ، وشاركوا مشاركة أجدى فى توجيه الحياة . . ولسنا نريد فى هذا الفصل أن نعرض للعادات والتقاليد ذوات الوظائف المعروفة الواضحة ، ولكننا نعرض لما توهمه الدارسون والمثقفون ، من عادات ضارة، وتقاليد غير نافعة ، وهى التى كمنت فى وجدان الشعب ، أو أعذرت إلى سفح كيانه الاجتماعى ، وبقيت فى طبقاته الدنيا ، تمارس جهْراً أو سرًّا،

وتقاوم من سائر الطبقات ، ولن نفهم فاعليتّها إلا إذا أدركنا أنها ميراث قديم متوغل فى القدم ، لعلها تعود إلى ما قبل الحضارة ، وبقاؤها إلى اليوم ، وإن كمنت أو انحدرت يدل فى ذاته على بقاء وظيفتها الحيوية ، وإن انحسرت هذه الوظيفة عن معظم الكيان الاجتماعى حتى استقرت فى موضعها على سفحه وقاعدته ، وهى تشبه إلى حد بعيد ما يمارس فيما يسمى بالجماعات المتخلفة فى العالم ، فالقبيلة التى تقوم برقصة الحرب – مثلا – قبل التوجه لقتال جيرانها ، إنما تستثير الحوافز على القتال أو تشحذ العزائم عليه ، والمحاربون يرقصون لنقل الشعور بالعزة ، ولا نقول التعبير عنه . والسحر المتعدد المعقد الذى يحيط بالفلاحة فى الجماعة الزراعية يشحذ عواطف هذه الجماعة نحو حيوانها ونباتها ومياهها .

ولكننا نلاحظ أن هذه العادات لا تفرغ شحنة هذه الانفعالات لأن الصالح العام للجماعة يتطلب الإبقاء عليها ، وتقويتها والانتفاع بها . وهى لذلك تتركز وتتبلور ثم تتحول إلى عوامل مؤثرة فى الحياة ، موجهة لها ، ونحن نرى أن هذه الاستثارة سواء وجهت إلى القائمين بها أو إلى غيرهم ، أو كان المقصود بها نافعاً لهم أو ضاراً بعدوهم ، فهى الغاية الوحيدة التى تتغياها هذه العادات وتلك التقاليد إذا مورست بحذق ، ولذلك كانت وظيفتها الأساسية هى شحذ انفعالات بعينها ، وتقويتها وتكثيرها وهى مشاعر ضرورية لحياة الجماعة . .

إذا أدركنا ذلك عرفنا قيمة العادات والتقاليد فى مجتمعنا وتخففنا من وصفها بالخير أو السوء . . بالتقدم أو الانتكاس . بالرقى أو الانحطاط ،

وكانت مهمتنا الأساسية أن نعرف وظيفتها النفسية الإيجابية فى الوجدان الشعبى ، ونجد مصداق هذا فى كثير من الجهود التى نقوم بها فى حياتنا اليومية ، وتسلك فى مجال العادات والتقاليد، وهى لا تحقق رغباتنا بمجرد القيام بها . وإنما ترفع من روحنا المعنوى ، وتربطنا بمجتمعنا ، وتعطينا دائماً النموذج العام الذى نحاكيه فى تصرفاتنا .

وهذه الحفلات التقليدية الكثيرة، التى نقوم بها أفراداً وأمة فى مناسبات مختلفة ، وفى فترات معينة ، وفى تواريخ ثابتة ، تقدم ذلك النموذج ، وتقوم بوظيفة الشحذ لهمم الأفراد والجماعات على القيام بعمل تريده الجماعة ، أو تقره الجماعة ، وتفيد منه ، فالمآدب التى تقام بين حين وحين والتى تصحبها مراسيم معينة وأزياء معينة وإشارات معينة ، نماذج عامة يصورها المجتمع لجميع أفراده وجميع عناصره ، والمراسيم والأزياء تدل فى ذاتها على اهتمام المجتمع بهذه المآدب ، ويصور كل واحد منها علاقة معينة من العلاقات الاجتماعية . والمضيف والضيف نموذجان اجتماعيان فى هذه المآدب قبل أن يكونا فردين اثنين ومؤاكلة كل واحد منهما للآخر فى هذا المحيط العلنى ، وبهذا التقدير العام . وإشهاد الآخرين عليه معناه توثيق آصرة لم تكن موجودة ، ويتطلب المجتمع وجودها أو تقوية علاقة رثت أو خفت لسبب من الأسباب ، واقتسام الرغيف وأكل « العيش والملح » وجرح الأصابع ولعق الدم وعقد أطراف الأزياء ، كل أولئك روابط ينزع المجتمع إلى تحقيقها فى كيانه وفى عناصره وفى أفراده .

وحفلات الزواج من أوضح هذه التقاليد فإنها لا تحتفل بالعاطفة

الخاصة بين رجل وامرأة أو فتاة ، وإنما تحتفل بالرباط المقدس فى نظر الجماعة ، وهو الرباط الزوجى . وعلاقة الزواج تتطلب من المجتمع أن يحتفل بها وأن يقرها وأن يشهد عليها وأن يسجلها وأن يعترف بثمراتها وبما تفرضه على كل طرف من أطرافها . وما تشهده فى هذه الحفلات من موسيقى وغناء لا يدل على فرحة المجتمع فحسب ، ولكنه يدل أيضاً على الإشهادالعلنى الذى يعد ركناً أساسياً من أركان الزواج واتخاذ مكان خاص وزى خاص للعروسين وتركيز الأضواء عليهما وإحاطتهما بالورود ، يحولهما من فردين اثنين لهما شخصيتاهما المعنيتان إلى نموذجين عامين . ومن أجل ذلك نراهما يتحولان إلى صور قديمة فى خلد المجتمع ، صور الشعار والرمز : فيها من آثار مشيخة القبيلة ورئاسة الجماعة آثار لا يخطئها التأمل . ووضع كف « العريس » فى كف العروس عند الغربيين ، أو وضع كف « العريس » فى كف وكيل العروس عند المسلمين يحكى الآصرة التى يقدسها المجتمع والتى لا يكاد يقدس آصرة أعظم منها ، ويصور أمل المجتمع فى بقائها وثيقة عزيزة لأن فى ذلك الاحتفاظ بالكيان الاجتماعى كله وأزياء المدعوين وأزهارهم وهداياهم . . وموائد الطعام وألوانه وصحافه . إنما هى أجزاء من الصورة العامة ، أو بتعبير أدق ، إنما هى إطار للنموذج العام الذى يقدمه المجتمع فى هذه المناسبة المقدسة عنده .

وعلى هذا النحو نستطيع أن نمضى فى تفسير عادات كثيرة وتقاليد كثيرة على أساس نفسى اجتماعى ، فتشييع الجنازات وإقامة المآتم تعبر عن حزن المجتمع على فقد فرد من أفراده ، لا باعتباره واحدا ، ولكن

باعتباره عنصرا فعالا مفيدا لمجتمعه ، تتعلق بحياته حيوات غيره وآمال غيره . والجنازة فى ذاتها فوق هذا التعبير عن الخشوع والحزن تجسم عواطف اجتماعية وتشحذهم الأفراد على احتمال المصاب وتصور لهم بطريقة تمثيلية الذهاب به والعود بدونه ومواجهة الحياة بعده وهكذا . . وفى الميلاد والختان وفى الاحتفال السنوى ببلوغ مرحلة معينة من مراحل العمر ، معنى اجتماعى وتعبير جماعى يدلان على علاقة الأفراد بعضهم ببعض فى الإطار العام وفق النموذج العام ، ولها كذلك وظائف تتطلبها الحياة من رفع الروح المعنوى وشحذ الهمة وبعث انفعال خاص تريده الجماعة فى طبقاتها وعناصرها ، وهذا الانفعال لا يستثار لكى تفرغ شحنته بل يستثار ويسرب فى مسالك النفس ليدفع الآحاد إلى القيام بعمل تراه الجماعة مفيداً لها يعينها على الاستمرار فى احتمال العبء ، أو يضع على كواهلها مسئولية معينة أو يفرض عليها ارتباطا معينا أو يلزمها بسلوك معين . . وكل ذلك فى نسق مرتب معروف مستقر يكون العرف الاجتماعى الذى يأخذ الفرد والمجموع باتباعه ويقاوم الخروج عليه ويعاقب ، ويكاد يخرج من الزمرة الجماعية من يضيق به أو من يقاومه أو ينكره .

فالعادات والتقاليد بهذه الصورة لها غاياتها التى يحددها المجتمع ولها وظائفها التى يريدها المجتمع وقد رأينا فاعليتها فيما يتصل بعلاقات العناصر والأفراد ، والجماعة كلها عادات وتقاليد تحكى تجانسها وتماسكها ونزوعها الدائم إلى التوحد ، وهى التى نستطيع أن نطلق عليها صفة « القومية » ، فاستعراض الجيش – مثلا – فى مناسبات عامة معينة ليس حفلاً يتغي

مجرد السرور به والفرجة عليه ، ولكنه تعبير تريد الجماعة أن تؤكده فى نفوس أفرادها وعناصرها ، فالجيش لم يعد مجموعة من الأفراد الأجانب الذين يبيعون خبرتهم المجردة من العاطفة القومية لكل من يطلبها ، كما كان الشأن فى بعض الحضارات القديمة ، ولم يعد حفنة من الإنكشارية الذين يختطفون من ديارهم ، وينشأون فى ديار أخرى بلا ولاء موروث أو عاطفة عائلية ترتقى وتتسع إلى أن تصبح عاطفة وطنية أو قومية ، ولم يعد حفنة من العبيد المماليك يستطيلون على الجماعة بالدربة المتخصصة ، والسلاح المحتكر والجرأة الوقاح ، ولكن الجيش الوطنى أو القومى ، جارحة اجتماعية تجسم إرادة المجتمع أن يدفع عن ذاته وعن حماه . ومن أجل ذلك كان استعراضه تقليدا قوميًّا لأنه فوق قيامه بالتدريب أو شحذ همة أفراده ، يقوم برفع الروح المعنوى فى الكيان الاجتماعى بأسره ، ويبعث غرائز الفتوة والكفاح وهى الغرائز التى تكمن فى وقت السلم وتخف سورتها بطول الركون إلى الطمأنينة ، واستقرار أسباب الحياة فى الوطن . وليس الاستعراض عبارة عن عرض كامل للجيش ، بجميع فرقه وآلاته ولكنه انتخاب يمثل ماتتطلبه الجماعة فى نفسها وفى نفسه . . ومن أجل هذا أيضاً حرصت الأمم على تثبيت المناسبات التى يقام فيها العرض العسكرى. وزاوجت بين مواسم عامة معينة وبين الوفاء بهذا العرض . كما أنه يكون عند التأهب لمعركة أو عند النصر فى حرب وهو فى الأولى تعبئة نفسية عامة وفى الثانية إشباع لعواطف الرضى بقدرة المجتمع على حماية نفسه والتغلب على عدوه .

وإقبال الكثرة على مشاهدة الحفلات الرياضية الكبيرة ليس مناسبة يشبعون فيها هواياتهم فقط ولكنه شعيرة اجتماعية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، فالمباريات الدولية والإقليمية ، والإعلان عن مواعيدها واتخاذ شارات معينة فيها وأعلام خاصة تصاحبها ، والأزياء الخاصة التى يرتديها اللاعبون . . كل هذا جهد قومى . فاللاعبون ينتخبون بعد اختبار ودربة وشهرة ، لا لكى يرضوا فى أنفسهم غريزة الظهور فحسب ولكن لكى يصبحوا نماذج جماعية تمثل أممهم وأوطانهم وأقاليمهم ، والمجتمع يحوطهم بعواطفه وتقديره وتشجيعه ، وتعترف الهيئة الاجتماعية بمقامهم وتنتدب بعض القوامين على الدولة لحضور مبارياتهم وتوزيع الجوائز عليهم . . والتقليد الرياضى نموذج تؤثره الجماعة وتدعو مختلف العناصر والأفراد إلى محاكاته والأخذ به واستثارة غرائز الكفاح فى النظارة وفى المتتبعين لأخبار المباريات أو المستمعين إليها فى الراديو ، وظيفة إيجابية من وظائف الرياضة . . والتشجيع فى أثناء المباراة لتأكيد النصر أو لتشجيع المتخلف . وظيفة أخرى من وظائفها ، لأنها بعد ذلك ترفع الروح المعنوى وتدفع إلى الصبر والاحتمال وتؤكد الأمل وتباعد اليأس .. وأهم من هذا كله وأدخل فى التقليد الرياضى مصافحة المتبارين بعد النتيجة تصويراً للتسامح ، وإبعاداً لأثر الهزيمة ، وتخفيفاً من وقع الفشل ، وتوثيقاً للأواصر الإنسانية كما يؤثرها المجتمع الذى يحتفل بالرياضة ، ولا يراها مضيعة وقت أو وسيلة فرجة أو مناسبة متعة وسرور .

ولكل مجتمع صغير ينتظمه المجتمع الكبير عاداته وتقاليده أيضاً ،

بعضها نماذج اقتبسها عن الإطار العام وبعضها أنشأه بنفسه ، وهى وإن اختلفت فى صورها إلا أنها تلتقى فى حوافزها ووظائفها وغاياتها ، فهى جميعاً نماذج يجسمها المجتمع الصغير لكى يسير على غرارها ،أفراده وطبقاته وعناصره ، وهى جميعاً تقوم بخلق علاقة أو تقوية آصرة أو تأكيد رابطة تعين على بقاء المجتمع متآزر الوحدات ، متماسك الأجزاء ، والاحتفال بالموالد فى أحياء بعينها وعشائر بعينها ، وأقاليم بعينها ، من تقاليد هذه المجتمعات الخاصة وعاداتها ، فهى تذكر فضيلة مجسمة يؤثرها المجتمع فى صاحب المولد ، أو تذكر علاقة مقدسة يبجلها المجتمع فى صاحب المولد ، أو تذكر قدرة معينة يحب المجتمع أن تظل له أو أن توجد فيه . . وكل المراسيم التى تصاحب هذه الموالد ، تصور العلاقات المطلوبة والوظائف الفعالة ، بيد أن بعض هذه المراسيم يشير إلى وظائف قديمة استقدمت إلى هذه المناسبة ، وتسربت إليها من عصر قديم ، فاختلطت ببقايا سحر ، وتحول هذا السحر الذى فقد مدلوله عند النزاعين إلى النفع من أى طريق إلى شعوذة ، وبقى الاستهواء النفسى يصاحب هذه الفعال عند الدهماء . . وصاحب المولد فى الحى أو العشيرة أو الإقليم فوق هذا كله شعار المجتمع الصغير أو الكبير الذى يحتفل به .. والاحتفال بالمولد فى هذه الناحية مناسبة جماعية منتظمة ، تقوى فيها العلاقات أو تتجدد لا بين أفراد المجتمع فحسب ولكن بينه وبين المجتمعات الأخرى التى تجاوره أو تصهر إليه أو تتعامل معه . ومن ثم كانت الموالد ، وينبغى أن تكون ، مناسبات أخوة وتعامل وتجارة !

وليس يفوتنا ، ونحن نتحدث عن العادات والتقاليد أنها سمة أساسية من سمات مجتمعنا وكل مجتمع آخر ، وهى عندنا بحوافزها وصورها ووظائفها كما هى عند غيرنا ، وكل ما فى الأمر اختلاف شكلى كاختلاف لغة عن لغة وزى عن زى ، واصطلاح عن اصطلاح ، وما من مجتمع يزعم أنه يعيش بلا عادات وبلا تقاليد ، وهو لو فعل لأنكر وجوده لأنه يقوم بهذه المراسيم ولا يستطيع أن يستغنى عنها بحال من الأحوال . وإنكارها جملة معناه إنكار الروابط الاجتماعية ، والوظائف الجماعية ، ومسايرة المجتمع لهذا الإنكار معناها ضعفه أو شيخوخته أو عجزه عن الملاءمة بينه وبين الحياة . بيد أن هذا لا يمكن أن ينسينا فعل التطور فى المجتمع وتأثيره بالتالى فى عاداته وتقاليده ومن ثم كان لزاماً على المجتمع القوى أن يقوم بعملين أساسيين : أولهما ، المحافظة على العادات والتقاليد ذوات الوظائف الإيجابية التى تنزع إلى النفع العام والتى تستهدف تماسك الجماعة ونزوعها الفطرى إلى الوحدة . وهذا النزوع فى مجتمعنا المصرى أصل من الأصول التى تفرضها الشخصية المصرية فرضا ، وتدفع إليها البيئة المصرية دفعا . وثانى العملين ، أن يعدل المجتمع فى وعى وأناة وإدراك كامل لمقتضيات التطور وغاياته من صور العادات والتقاليد التى ضعفت وظائفها أو انقرضت ، والتى كمنت فى أطواء الوجدان الشعبى ، تخليصاً لهذا الوجدان من الصراع النفسى فى الفرد وفى الجماعة ، وهو الصراع الذى يبدد القوى ويضعف الهمة ويفكك الأواصر ويكاد يطمس الهدف المنشود . . والمجتمع فى هذين العملين مطالب بوساطة عقوله المفكرة ، وعواطفه

المعبرة ، وإرادته المدبرة أن يبرئ العادات والتقاليد مما تسرب فى تضاعيفها من السحر ، ومن الشعوذة ، ومن بقايا الوثنية وأن يخلصها من الاستنامة إليها والاستهواء المضلل بها ، فإن هذه الاستنامة وذلك الاستهواء كثيراً ما يدفعان الدهماء إلى الاعتقاد بفقدان العلاقة بين الرغبة وبين العمل ، حتى أنهم يتصورون أن رغباتهم تتحقق بمجرد السحر والتوسل وغيرهما ، مع أن العادات الصالحة والتقاليد الصالحة إنما تشحذ الهمة عند الرغبة ، وترفع الروح المعنوى عند النهوض بتبعة من التبعات ، وتعين بذلك الأفراد والجماعات على القيام بأعمال تحقق رغباتهم وتدفع عنهم عادية اليأس ، وتشجعهم عند الإخفاق ، وتجدد عزمهم على معاودة العمل . .

ومن التقاليد التى فقدت وظيفتها ما كان منها متصلا بالملوكية الطاغية ، والإقطاعية الباغية ، ومراسيمها التى كانت تدفع المجتمع إلى أن ينكر الأفراد وجودهم فى سبيل وجود فرد واحد ، وقد لا يكون من أرومة المجتمع نفسه ، أو حفنة من الأفراد الواجدة المحتكرة للخير . والمتأمل فى صور هذه المراسيم يجدها تصور « النموذج العام » خضوعاً كاملا ، واستسلاماً تامًّا لذلك الفرد الذى مكنته تلك المراسيم من التخييل لنفسه باستبعاد أفراد المجتمع واستغلال جهودهم ، وامتلاك وطنهم ، وهذه الصور تمثل بما يشبه المطابقة الكلية الولاء وحركات الخضوع بالخطوات المتخاذلة ، والانحناءات المتكررة ، وتقبيل الأرض وأطراف الرداء واليد ووضع الكف على الكف رمزا للامتثال ، وهى تنتظم فى الوقت نفسه ألقابا انقرضت دلالاتها ، وصيغا لا تلائم كرامة الإنسان وعزة الجماعة . وأسماء بلا معنى وأزياء مزركشة

ومذهبة وأدوات أثرية وما إلى هذا بسبيل . . على المجتمع الذى حقق وجوده وعرف نفسه الجامعة أن يطهر وجدانه من أمثال هذه العادات والتقاليد التى فقدت وظيفتها ، أو بعبارة أصح التى كانت لها وظائف مفتعلة مصطنعة لا تلائم فطرة المجتمع ، ولا بيئة المجتمع وعليه أن يتخلص من الرواسب التى كانت تفل إرادته وتكبت رغبته وتجعله يخاف حتى من الوهم ! ! عليه أن ينفض عن كيانه شوائب الخرافة ، وأن يبدد عناصر الجنوح إلى الشعوذة وأن يبطل السحر المفتعل ، وأن يحل فى مكان هذا كله مراسيم جديدة تقف إلى جانب عاداته الصحيحة وتقاليده ذات الوظيفة الفعالة وتقدم له المثل الذى ينشد ،والنموذج الاجتماعى الذى يصبو إليه تحقيقاً لنزوعه الأصيل إلى القوة والوحدة والمنعة . . .

اللبنة الأولى

. . والكيان الاجتماعى بعناصره وطبقاته وأفراده كالجسم الحى يتألف من خلايا منجانسة متماثلة ، وهذه الخلايا تقوم منه مقام اللبنات التى تؤلف بناء معقداً كبيراً شاهقاً . واللبنة الأولى لعراقتها وقيام المجتمع بها هى الأسرة ، فالمجتمع ، أيًّا كانت صورته وأيًّا كانت مرحلته من التطور وأيًّا كانت ثقافته إنما يقوم بالأسرة ، فهو فى حقيقته وجوهره عبارة عن أسر تتألف من أبناء وبنين ، وبين هذه الأسر وشائج رحم ، وروابط صهر ، وعلاقات تعامل ، وهى جميعا تستشعر إلى جانب العاطفة الأسرية عاطفية قومية أو وطنية تجمع الطبقات والهيئات والعناصر كلها فى وحدة شعورية متبلورة هى الولاء للقوم أو الشعب أو الأمة أو الوطن . . ولعل من أمتع المعضلات التى حاول العقل البشرى أن يعالجها أيام طغى المنطق الشكلى على غيره من ألوان الفكر . . هل وُجدت البيضة أولاً أم الدجاجة ؟ . . ولعل هذا العقل فى جهاده لمعرفة العلة الأولى قد تتبع حلقات الكائنات والموجودات واحدة فواحدة . فوجد أنه ينتهى آخر الأمر من حيث بدأ ، فالدجاجة من البيضة ما فى ذلك شك . . والبيضة من الدجاجة ما فى ذلك شك أيضاً ولكن أيهما أسبق فى الوجود الأول ! ! . .

وكذلك يعن لأصحاب علم الاجتماع أن يتساءلوا أحيانا : أنشأت الأسرة من الزواج أم نشأ الزواج من الأسرة . فنحن نلاحظ فى مجتمعنا

الحاضر أنه ما من أسرة إلا وكانت ثمرة لزواج ، وكذلك الحال فى سائر المجتمعات البشرية التى عرفها التاريخ ، وإن كانت شريعة الزواج تتسع فى حقبة أو مجتمع فتحلل ما حرمته حقبة أخرى أو مجتمع آخر . . . وأصحاب علم الإنسان يؤكدون أن الأسرة قديمة قدم المجتمع البشرى بل هى أقدم منه بكثير . . فالثدييات العليا ، ومنها القردة العظام تحيا حياة فاعلية واضحة المعالم والمراسيم يقوم فيها الذكر مع أنثاه أو حريمه وأبنائه مقام الأب فى الأسرة الإنسانية من التحذير والحماية والرعاية جميعاً . . .

ويكذب علماء النفس ما ذاع أخيراً على يد تلاميذ « فرويد » والمسرفين فى تفسير مذهبه من أن الجماعة الإنسانية قد مر عليها حين من الدهر كانت تعيش فيها عيشة إباحة واختلاط لا تعرف المحارم . ذلك لأن الغيرة وهى أصل من أصول الأثرة والحيازة والملكية موجودة بين ذوات الأربع فى كثير من الحيوان . . .

وما يعنينا بطبيعة الحال أن نعرف هل قامت الأسرة فى تلك العصور السحيقة عن زواج له قواعد ورسوم أم لم تقم . . ولكن الذى يعنينا أن شعائر هذا الزواج وشرائعه متمكنة من النفس البشرية منذ عهد لا ندرك كنهه . وأنه قام لتنظيم هذه العلاقة التى تمس أصلا من أقوى الأصول فى الحياة ، وهو حفظ النوع البشرى فهو ينظم العلاقة بين شريكين كل منهما قبل الآخر ، وينظم هذه العلاقة قبل ما يصدر عنهما من نسل ثم هو بعد هذا كله ينظمها قبل المجتمع .

وقد مر بنا فى الفصل السابق كيف احتفل المجتمع بهذه اللبنة الأولى

وكيف أحاط بدايتها وثمراتها بالتقديس والعناية والحماية أيضا وكيف أبرز لجميع أفراده النموذج العام الذى يرتضيه ، والذى يلزمهم بمحاكاته . ومجتمعنا المصرى من أكثر المجتمعات احتفالا بالزواج وتقديساً له وحماية للعلاقة الزوجية ، وتأكيداً لعواطف الأبوة والأمومة والبنوة جميعا. ولكم عبّر وجدانه فى أمثاله وأغانيه وملاحمه ووصاياه عن هذه العاطفة ، فنحن نجد الوجدان الشعبى يرغب عن تلك الغنائية التقليدية فى الشعر الفصيح التى اتجهت بكليتها تقريبا إلى الحب العذرى أو الأفلاطونى وجعلته عاطفة حزينة تصطدم بعادات المجتمع وتقاليد المجتمع ، ثم تحولت به إلى حلية تقليدية يبكى الشاعر فيها طللا لا واقع له ، أو يتغزل بمثال لا حقيقة فيه أو ينحرف عن الفضائل الثابتة ، ويتغنى بالتحلل الاجتماعى والشذوذ الجنسى . وجسّم الوجدان الشعبى الحب المتعقل ، أى حب الرجل لزوجته وعطفه عليها وخوفه من فراقها والبكاء عند توديعها والاحتفاظ بذكراها والفرح بلقائها . ولم يجعله وقفاً على جانب الرجال وحدهم ، بل رسمه مشتركا متبادلا ، وأجرى على لسان الزوجة مثلما أجرى على لسان الزوج مختلف العواطف المبتهجة أو المحزونة . وهذه الخصلة إن دلت على سمة فنية ، فإنها تدل فى الوقت نفسه على النموذج الاجتماعى العام . وأنت ، إذا تصفحت سيرة بنى هلال مثلا فإنك تجد الشواهد الكثيرة الناطقة بهذا الواقع النفسى . فالجازية وهى الأم المثالية فى تلك السيرة الشعبية ، وشكر الشريف زوجها. يفصحان عن هذا الضرب من العاطفة الزوجية . وأنت تجد الزوجات والأزواج فى الملاحم الشعبية سواء فى هذه العاطفة . كما أنك تلمح الأبوة

مجسمة فى الأبطال جميعا والأمومة مشخصة فى النساء جميعا ، وتلمح إلى جانب هذا كله الحب الممزوج بالاحترام عند الأبناء والبنات بلا استثناء . ولن تطلع من هذا الوجدان الشعبى على تحلل أو شذوذ أو انحراف . ذلك لأن المجتمع لا يمكن أن يعمل على إضعاف ذاته ، وتوهين علاقاته ، وتفكيك أواصره . ومن ثم أسقطت الملاحم كل ما يتعلق بالشذوذ والتحلل ، لا لأن الشعب لم يلاحظه فى العناصر المتخاذلة والأفراد الضعاف أو المرضى ولكنه آثر أن يكون إنكاره لهذه الرذائل بحذفها من ملاحمه حذفاً يكاد يكون تاما .

بيد أن هذا لا يمنع الوجدان الشعبى ، بما جبل عليه من النزوع إلى النقد والتقويم والإصلاح من ذكر هذه الرذائل فى نوادره وملحه ونكاته وهو بهذا يصفها أمام أفراده « على المشرحة » يحللها ويدعو بطريقة غير مباشرة وغير وعظية إلى محاربتها والتخلص منها ، وكما جسم فضيلة الرابطة الزوجية فى ملاحمه وأكدها فى وجدانه فكذلك جسم رذائل التحلل والانحراف فى سخره وتهكمه لكى ينفر منها ويعمل على تخليص أفراده من الوقوع فيها .

والمجتمع المصرى يقدس الأسرة ، ويكبر من شأن الزواج ، وهو على الرغم من الظروف الكثيرة التى مر بها فى تاريخه البعيد والقريب لا يزال يتشبث بهذا التقديس للأسرة والإكبار للزواج . ولقد دلت الإحصائيات على أن هذا المجتمع بنجوة من الخلل الكبير الذى استحدثته الحروب بين تكافؤ الجنسين فى العدد . ومراسيم الزواج عقدة ترتبط فى البيئة الريفية بمواسم الحصاد فلا يكاد يبلغ المرء سن الرشد ويحصل على عمل ويستقر فيه حتى يقبل على الزواج وهو فى هذه الناحية يختلف كثيراً بل يباين بعض

المجتمعات الغربية التى شاع فيها الانصراف عن الزواج وعن الأسرة مما أدى بأحد الكتاب الغربيين إلى أن يؤلف كتابا عنوانه « إفلاس الزواج » .

ودفعت الظروف الاقتصادية ، إبان الحرب وبعدها ، المجتمع دفعاً إلى أن يعدل فى مراسيم الزواج تعديلا يمس مظهرها ولا يمس جوهرها فإن الطبقات الوسطى تخففت من نفقات الاحتفال واستبدلت به « اجتماعاً عائلياً » يجسم النموذج الاجتماعى المنشود ويدفع إلى تقوية الأواصر ويؤكد عنايته باللبنة الأولى وهى الأسرة . ويسرب فى النفوس مشاعر البهجة بميلاد أسرة جديدة والأمل فى رفائها وإثمارها واكتفت بالإعلان فى الصحف لإقامة الركن الذى لا يتم الزواج بدونه وهو الإشهاد العلنى الدال على اعتراف المجتمع بهذه العلاقة الجديدة وإقراره لها لمسايرتها نموذجه العام . . ولم يعد الزواج عند الذين يقدرون قيمته الاجتماعية وسيلة تظاهر فردى يحققه الشرف ، وطبعت الحياة فى المدينة المكتظة معدات الزواج بطابع الفائدة والاستمرار لا بطابع الزينة والكثرة وإن زادت على القدرة وتجاوزت طاقة المسكن ولاحظنا فى بعض البيئات المتعلمة عدم التفانى فى طلب المهور حتى يقبل الرجل على حياته الاجتماعية الجديدة دون أن ترهقه البدايات : ونحن على يقين من أن هذه المراسيم الجديدة التى تحل محل القديمة تقوم بالوظيفة الاجتماعية خير قيام وسوف تشيع فى الكيان الاجتماعى كله على اختلاف بيئاته وطبقاته .

ودخلت المرأة إلى سوق العمل فى الطبقتين الوسطى والدنيا وكان دخولها مسايراً لطبيعة الحياة وظروف التطور الاقتصادى ، فالواقع أن المرأة المصرية

لم تكن حبيسة جدران وهيدة دار بالمعنى الذى تبادر إلى بعض الأذهان فى الجيل الماضى وفى هذا الجيل ، فقد كانت فى ريف مصر ساترة أو كالسافرة تعين زوجها فى عمله ، وأدى قانون تقسيم العمل إلى تخصصها وتخصصه ، كما كانت فى المدينة هى المدبرة لشئون البيت ، القوامة على تربية البنين ، الساهرة على مصالح الجميع . ولما أخذت تتحول مصر رويداً رويداً ناحية الصناعة وضاقت التربة السوداء بأهلها المتكاثرين واكتظت المدن وتركزت فيها أسباب الإدارة والأخذ والعطاء ، وارتفع مستوى المعيشة ، وانتشر التعليم تأهلت المرأة فى أول أمرها لمهن التمريض والقبالة والتدريس ثم اقتحمت سائر الأبواب بعد ذلك تقريباً وأخذت تستعد للنهوض بمهن التقاضى والهندسة وما إليها بسبيل . ولم يؤثر ذلك فى الرسم البيانى للإقبال على الزواج ، كما حدث فى أوربا وأمريكا ولكنه على العكس أعان هذا الخط على الاطراد والارتفاع ، وكان قد آذن بهبوط ، ذلك لأن الرجل الذى كان يخشى من بناء الأسرة وتبعات الزواج أصبح يستطيع متعاوناً مع زوجته العاملة أن ينهض بمسئولية الحياة العائلية . فأخذت المرأة المتعلمة العاملة تستطيع أن تنوب عن ولى أمرها فى تجهيز نفسها للزواج ، وأدى هذا التعاون بين الشريكين منذ اللحظة الأولى إلى التخفف من المراسيم القديمة فدفعا المجتمع بذلك إلى أن ينفض عن كاهله تلك المراسيم وأصبحا فى ذاتهما نموذجاً تقدمه الطبقات الوسطى المتعلمة إلى سائر البيئات الاجتماعية .

واستتبع الحرب الماضية ازدياد عدد العاملات عند سفح الكيان الاجتماعى ، ورأينا الظاهرة التى تماثل ما شاهده المجتمع الغربى إبان الثورة

الصناعية ، وهذه الظاهرة هى التى سميت عند الغربيين بخروج صاحبات « الجوارب القصار » اللاتى يعملن فى مصانع الأزرار والسجاد والنسيج وجمع المواد وتصنيفها وبيعها . وكان موقفهن من الزواج ، كموقف المتعلمات سواء بسواء إذ استطعن أن يدخرن لتجهيز أنفسهن لحياتهن المقبلة وساعدن على الإقبال على الزواج بتعاونهن مع الشركاء الذين يقومون باختيارهن كما أنهن قمن نيابة عن أولياء أمورهن بما تتطلبه مراسيم الزواج من نفقات ! وبدخول أولئك وهؤلاء إلى سوق العمل تغيرت الصورة الظاهرية لقوام الأسرة ولكنّ جوهرها ظل سليما لم يخدش، وإن واجهت هذه الأسر الجديدة مشكلات جديدة لم يكن للمجتمع بها عهد ، أو كان يألفها على نطاق ضيق لا يؤبه به ، ومن هذه المشكلات رعاية الطفولة الناشئة من شريكين يضطرهما عملهما إلى مغادرة البيت شطرا كبيرا من النهار ومنها القيام بالخدمة المنزلية ، ولكن الحياة التى تفيد أبدا من التجاريب وتوازن أبدا بين نظمها ومقتضيات التطور تدفع إلى التخلص من هذه المشكلات ، يعين على ذلك التخفف من العمل المنزلى ، واعتماد أفراد الأسرة على خدمة أنفسهم بأنفسهم ،ومحاولة الموازنة بين العمل الخارجى والعمل الداخلى واستعانة المقتدرين بالآلات التى توفر الجهد والوقت معه وسوف تدفع هذه الظاهرة إلى شيوع المؤسسات التى تنوب عن الأمهات فى رعاية الرضيع والصغير وشيوع مدارس الحضانة التى ترعى أبناء الغد فى المرحلة التى تسبق التعليم العام . .

واحتفل الأدب الشعبي الحديث بخروج المرأة إلى سوق العمل واتخاذها

خطأ من الاستقلال الاقتصادى وتغيير شخصيتها بالنسبة إلى شريكها وإلى العرف القديم ، ورأينا القصص والأغانى والنوادر التى تحكى هذه الظاهرة ، وتبالغ فى تصويرها مسايرة للوجدان الشعبى فى نقد أفراده وتصويب سلوكهم وتقويم شخصياتهم وعدم التخلى عن نماذجه القديمة قبل أن يستكمل اختبار النماذج الجديدة والتأكد من سلامتها ، وقدرتها على القيام بوظائفها الاجتماعية فى توثيق الأواصر بين عناصر اللبنة الأولى فى المجتمع وهى الأسرة من ناحية ، وربط هذه اللبنة بالكيان الاجتماعى العام بأسبابها القوية المتينة من ناحية أخرى ، ومن أجل ذلك لاحظنا كيف أخذ الوجدان الشعبى يتخفف من النقد شيئاً فشيئا ويتجه إلى معالجة الظروف الجديدة معالجة إيجابية وينظر فى تفاصيلها وخصائصها نظرة فاحصة ، ولن يمضى طويل وقت حتى ينصرف عن هذا الوضع إلى غيره بعد أن يتأكد من وفائه بالغاية التى ينشدها وهى سلامة الأسرة . والدارس لهذه النقدات فى حدتها الأولى وفى موضوعيتها بعد ذلك يلاحظ أن المجتمع المصرى لم تأخذه الدهشة من خروج المرأة المتعلمة إلى سوق العمل وبروز المتأهلة ببعض الخبرة إلى سوق الصناعة ، ذلك لأن العمل لا يناقض الأسرة فى نظر المجتمع فالمرأة كانت تعمل فى البيئة المصرية دائماً ، سواء أكان ذلك فى الحقل أو فى البيت ، وكل ما حدث إنما هو تغيير فى سوق العمل أدى إليه التطور وهو لا يحرص على شىء حرصه على الموازنة بين عمل المرأة وواجبات الأسرة . .

ويخطىء من يظن أن الشعب المصرى ، شعب مزواج كما ذهب إلى

ذلك كثيرون من الباحثين الغربيين الذين التفتوا إلى هذا الشعب متأثرين بأفكار سابقة وعقائد خاصة لونت أراءهم فيه . والواقع أن الشعب المصرى من أكثر شعوب الأرض نزوعاً إلى الاستقرار بصفة عامة ، والاستقرار العائلى بصفة خاصة ، والنموذج الذى أكده فى أساطيره القديمة وفى ملاحمه وفى قصصه وأغانيه أيضاً يقطع بأنه يؤثر سلامة الحياة الزوجية من كل تقلقل وكل اضطراب ويحرص على حمايتها من أى عنصر يفسدها أو يثيرها أو يعصف بها . ولذلك نرى أن الأصل عند الشعب المصرى هو عدم التعدد . . والمجتمع لا يبيح للرجل أن ينصرف عن زوجه إلى غيرها إلالمبرر قوى وفى أضيق الحدود ومعنى هذا أن الوجدان الشعبى لا يرى فى الزواج عملا طائشاً أو مجرد إشباع لنزوة أو متعة ولكنه يراه ضرورة من ضرورات الحياة وينزهه عن الطيش والهوى والاستمتاع الرخيص . وليس من شك فى أن النموذج الإقطاعى القديم والدخيل هو الذى حاول أن يكسب نفسه رخصة الزواج بلا ضابط اجتماعى عام ، لأن الإقطاع لا يستشعر مسئولية اجتماعية قبل سلطة أعلى منه ، ولا يحس فى نفسه من هذه الناحية رقابة اجتماعية كرقابة الضمير ، ودفعه ذلك إلى أن يبرر مسلكه على الأجيال ووضع نموذجه الذى لا يستقيم مع الوجدان الشعبى العام ، وإنما يستقيم فقط مع الوجدان الإقطاعى الخاص . . والوجدان الشعبى وهو الذى يتحول فى كثير من الأحيان إلى رأى عام وإلى إرادة عامة كثيراً ما أعلن عن نفوره من التعدد بلا ضرورة ملحة وبلا سبب صحيح تقره الجماعة ، وكان الوجدان الشعبى أعمق إدراكاً لروح الشريعة الإسلامية السمحة

التى رخصت التعدد . وأنت تستخلص من هذا كله أن الهيئة الاجتماعية رقيبة على اللبنة الأولى ، وهى الأسرة ، ساهرة على سلامتها ، عاملة على تصحيح أوضاعها بحيث تساير النموذج الذى وضعته .

ولم يكن المجتمع المصرى ، وهو أقدم مجتمع متجانس عرفه التاريخ ، بدعا بين سائر المجتمعات المماثلة ولذلك فقد حرص منذ أحس وجوده أن يضع القواعد التى تنظم اختيار الشريك . . كانت فى يد ولىّ الأمر وهو الأب عندما كان يسمح بالزواج بغير الراشدين ثم اعترف بإرادة الشركاء أنفسهم إلى جانب أولياء أمورهم عندما نزع المجتمع إلى حماية اللبنة الأولى من سوء الاختيار غير المرتكز على البصيرة والإرادة وعندما حدد السن الأدنى للراغبين فى الزواج . وفى جميع الفترات كانت هناك نظم تختبر فيها قدرة الشريك على القيام بالتزاماته العائلية ، ولما كان المجتمع المصرى من المجنمعات التى أنشأت الحضارة فى العصر القديم منذ آلاف السنين فقد تجاوز المرحلة البدائية مبكراً ، ونأى بجانبه عن تلك الوسائل التى فرضتها المجتمعات المتبدية كاختبار الشريك بالقدرة على احتمال عدد معين من ضربات السوط أو التعرض للدغات النحل أو البراعة فى اصطياد رءوس العدو ! وآثر المجتمع المصرى وسائل أخرى ، وقد كان مجتمعا متحضراً مستقرا وتتركز هذه الوسائل فى اختبار قدرة الشريك على إعالة زوجه وبنيه ، والنهوض بمسئولياته الخاصة والعامة معا ، وظلت هذه الوسائل قروناً متطاولة تقوم بوظيفتها الاجتماعية خير قيام ، وإن تعددت رسومها وتنوعت صورها من بيان أرض يملكها ويغلها ، أو القيام بعمل

أو مهنة تدر عليه كسباً موصولاً ، أو مقام اجتماعي يجعله صاحب نفوذ وسلطان . . ومن الخير أن نذكر هنا أن زواج الأطفال غير الراشدين كان سمة من سمات النظام الإقطاعي الذي يقوم بتوريث الأعمال والمهن والمراتب الاجتماعية ، وهذا التوارث لم يكن يناقض اختبار الشريك لأن هذا الاختبار كان متضمنا في الإقطاع لا يحتاج إلى ظهور أو إلى تجربة ، وكان بقاؤه بعد ذلك تصوراً ذاتياً لاغناء فيه ، اللهم في البيئات الزراعية التي ظلت برغمها خاضعة للإقطاع . ولم يترك الشعب هذا التحول يمر بلا تعليق ولكنه كان كعادته ينزع إلى نقد الجديد حتى يتم له اختباره ومن هنا استمع المصريون إلى أغان كثيرة تتفكه بسلطة الدولة في تحديد سن الزواج للفتاة ! . . واحتفل الشعب إلى جانب ذلك بالحد الأعلى للسن ، وهو ما لم يوضع فيه نص قانوني كالحد الأدنى ، ولم ينظر الشعب إلى زواج الشيوخ في ذاته ، وإنما نظر إلى التباين في السن بين الشريكين ! زواج الشيخ من فتاة في سن ابنته أو أصغر ، وزواج المرأة العجوز من فتى في سن ابنها أو أصغر ، وألف المجتمع من هذه الصور غير المتكافئة في قصصه وأمثاله ونكاته رسوما كاريكاتورية شتى . ولم يكن هدفه مجرد الضحك أو التندر ، ولكنه كان يضع بطريقة سلبية نموذجه الذي يعتمد على التكافؤ في النظر إلى الحياة ، ويدعو بوسيلة غير مباشرة إلى حماية اللبنة الأولى من هذا الخلل الكبير في النسبة والتناسب بين ركنيها الأساسيين ، وهذا أنت ترى أن وجدان الشعب كان أسبق وأدق حتى من القانون المكتوب ، ذلك لأن هذا القانون يجيء دائما متأخرا عن

العرف ، ويجىء تسجيلا له ، وهو يتطور ويفيد من السوابق والتفاصيل التى لم تكن فى ذهن المشرع عند وضع بنوده .

وربما كان احتفال المجتمع المصرى بالقواعد التى ترسم الدوائر المحددة لاختيار الشريك من أوضح السمات التى تظهرنا على إحساسه بذاته دائماً أبدا ، ومحافظة على وجوده دائماً أبدا والانتباه إلى كل شبهة يتصور إخلالها بالتوازن فيه أو إضعافها للروابط التى تشد لبناته بعضها إلى بعض ونحن نمر بالقواعد الداخلية والخارجية المقررة التى تبين الحرام والحلال فى الزواج والتى تذكر فى تفصيل الأجيال التى يكون الشريك منها ، ونقف عند القواعد الأخرى التى تحمى المجتمع من التسرب الأجنبى فى داخل كيانه ، فقد كانت العصبيات القديمة فى الماضى تحرم على بعضها الإصهار إلى بعض ولا تبيحه إلا إذا كان مسايراً لعلاقات المودة بين عصبيتين أو مستحدثا لهذه العلاقات . والوجدان القومى أوسع من الوجدان القبلى وإن كان يشبهه فى هذه الصفة ومن هنا كان المجتمع المصرى كثيراً ما يتردد ويتحرج ، بل يأنف أحياناً من زواج المصريين بالأجانب ، ونقصد بهم أولئك الذين لا يرتبطون معه بأواصر القرابة أو الجوار أو المودة ، والذين تختلف مقومات ثقافتهم عن مقومات ثقافته ونظرة المجتمع المصرى إلى الرجل والمرأة فى هذه المسألة سواء ولكنه ساير الفطرة فى درجة التحريم بين الجنسين فكان موقفه مع المرأة أقوى منه مع الرجل ، ولكم قاست الحضارات السابقة من التفريط فى هذا الوعى الاجتماعى بل ولكم كان تسرب الأجانب إلى كيان المجتمع عملا من أعمال الإصرار تدفع

به قومية معادية أو دولة معادية ونتائج هذا وذاك يعرفها المؤرخون والاجتماعيون ولو كشف النقاب عما دفعت إليه بعض القوميات المتهوسة من التخلى الظاهرى عن ولائها القومى بل وعن دينها والتسرب فى مجتمعات تباينها لاستطعنا أن نفسر كثيراً من الظواهر السياسية فى المجال الدولى ! وكان الشعب المصرى حساساً جداً فى هذه المسألة بالذات ، وهذه الحساسية تجسم شعوره بذاتيته العامة وحرصه الكامل المستمر على سلامتها. وانعكست حساسيته هذه على أدبه وبخاصة عندما التقى بحضارات أخرى ، والتقى الأدب الفصيح والشعبى فى التعبير والتصوير والنقد ، وما نظن أن حساسيته بها ستخف ، ذلك لأن النموذج الذى وضعه لعناصره وأفراده لم يتغير ولأن محافظته على كيانه لم تضعف وهو لا يريد أن يعترف باستعلاء مجتمع آخر عليه ، ولا يحب أن يستشعر أفراده عقدة نقص فى ذواتهم تدفعهم إلى تعويضها أو التسامى بها عن طريق البناء بالأجانب . .

وإذا كان المجتمع ينظم عن طريق الزواج الانتخاب الطبيعى بين الجنسين قدر الطاقه فإنه عمد فى الوقت نفسه إلى تنظيم الوسائل التى تحل ارتباطاً قام بلا انتخاب طبيعى لضرورة من الضرورات أو خطأ من الأخطاء وحل الارتباط هو « الطلاق » وهذا هو الأصل الاجتماعى فيه وإن رفضته بعض المجتمعات أو خرجت به بعضها الآخر عن هدفه ومرماه.

وكان طبيعياً أن يحرص المجتمع على اللبنة الأولى والأصيلة وأن يحميها من سوء الاستعمال للطلاق ، لأنه يعنى بتوثيق الروابط ، وينأى بجانبه عن توهينها أو حلها ، وأدى به هذا الحرص أولاً إلى النفور من الطلاق

وثانياً إلى عدم استعماله إلا في أضيق الحدود ، وللضرورة القصوى عند الدفاع عن الذات الجماعية ، فهو لا يسمح به إلا إذا ثبت له أن العلاقة التي ربطها الزواج لا تساير نموذجه ولا تعمل على مصلحة ذاتها ومصلحة المجتمع معها .

ولما كان المجتمع على الرغم من تجانسه وتبلوره يحكي الأطوار الثقافية السابقة على وجوده بصورته الراهنة ، مثله في ذلك مثل الكائن الحي الذي يحكي أطوار الحياة قبله ، فقد اختلفت أنظار الطبقات والبيئات إلى الطلاق تتسع دائرته في طبقة أو بيئة ، وتضيق في غيرهما كما أن المجتمع يمر أحياناً بفترات يتخلخل فيها كيانه فيفشو الطلاق ، وبفترات أخرى تتماسك عناصره ، وتقوى لبناته فيضيق الطلاق ، ولكن وجدانه العام ظل دائماً يتحرج منه ولا يسمح بممارسته إلا إذا دعت إلى ذلك أسباب جوهرية تؤكد الخيانة والعجز عن النفقة والسفه وما إلى هذا بسبيل ، وهو وجدان مستمر يناقض وجدان البدائيين أو جماعات التجار الجوابين ، ولم يجنح إلى ما جنحت إليه مجتمعات أخرى من تقاليد عجيبة أوردها في قصصه لما فيها من مغايرة لأوضاعه الثابتة ونماذجه الوطيدة ، من ذلك ما يتندر به من تطليق النساء لأزواجهن لأوهى الأسباب ! وهو منطق معكوس عند المجتمع المصري . . معكوسة لأن المرأة هي التي تملكه . . ومعكوس لأنه يقوم لأسباب غير معقولة ، والمجتمع المصري عاش دهره نزاعاً إلى الوحدة مترابط الحلقات ، ومن أجل ذلك قاوم الطغيان والإقطاع والاستعباد والتسخير والحكم الأجنبي ، ولم يشع الترف في كيانه الأصيل

وإنما شاع فى فترات ومراحل فى قمة الهرم الذى يتألف منه وتجاوزه قليلا إلى العناصر المرتبطة بهذه القمة، والتى تعيش لها فبقيت الحضارة المصرية محتفظة بقوامها ولم يصبها ما أصاب بعض الحضارات القديمة والوسطى وما بدأ يصيب بعض الحضارات الحديثة أيضاً . والمؤرخون يذكرون . مثلا أن الحضارة الرومانية عندما أصابتها الشيخوخة وانتشر فيها الترف والتحلل نزعت إلى الطلاق وكان هذا النزوع مظهر فنائها ودليل تلاشيها ، وبلغ من شيوع الطلاق عند الرومان فى تلك المرحلة أن المرأة كانت تؤرخ حياتها بعدد الأزواج ، كأن تقول : العام الأول للزوج الثانى ، أو العام الثانى للزوج الثالث أو الرابع وهكذا ! وعندما فقد الإقطاع فى مصر وظيفته وتخلخلت الحياة العامة فى السنوات الثلاثين قبل الثورة وجدنا الطبقات التى كانت تأنف حتى من الالتجاء إلى المحاكم عند اختلاف الشريكين أصبحت تتسامح فى حل عقدة الزواج ، بيد أن المجتمع نفسه ظل على موقفه من إنكار هذه التصرفات ونقدها وليست حوادث الطلاق التى تتفنن الصحف فى إيرادها وتكثر من الخوض فيها دليلا على شيوعها ، ولكن هذا النشر يدل فى ذاته على الطرافة ، وهو الاستثناء الذى يثبت القاعدة ولا ينفيها . . والنماذج الجديدة التى تذاع أخبارها وصورها على الناس لبعض الذين يخيلون لأنفسهم ولغيرهم أنهم كواكب سيارة أو أصحاب عبقرية تبيح لهم الخروج على المألوف إلا ظواهر عارضة على سطح الكيان الاجتماعى كالبثور ولا تدل بحال من الأحوال على تخلخل أقدس روابطه ، وهى الزواج ولا على تقلقل أثبت قوائمه وهى

الأسرة . . والمجتمع المصرى متدين بفطرته ، أيا كانت عناصره ، وهو لذلك يتشبث بالمثل العليا التى وضعها الدين له ، وهى مثل تدعم كيانه وترفع معنويته وتجعل لحياته قيمة فى ذاتها وهدفاً سامياً تسعى إلى تحقيقه . والدين ينظم الزواج ويجعل الطلاق أبغض الحلال عند الله ، ويثبت الأسرة ويوثق العلاقة بين أركانها وأجيالها وبينها وبين المجتمع كله . . والدين يضع الفضائل الأخلاقية ويأمر الناس باتباعها ويذكر الآفات الاجتماعية وينهى الناس عنها ، وحرص المجتمع على مثل الدين حرصه على ذاته والتى نزوعه إلى التوحد والتآزر بأوامر الدين ونفوره من الانحلال والشذوذ بنواهى الدين . والزواج عند المجتمع المصرى شعيرة دينية واجتماعية معاً والأسرة عنده هى اللبنة الأولى التى لا يقوم بغيرها والتى لا يمكن أن تقوم بوظيفتها الكبرى فى الكيان الاجتماعى إلا إذا كان قوامها الدين والأخلاق والوطنية ، ولم تعد تكاليف الحياة الزوجية عبئاً يبهظ الأزواج لأن الدولة ، وهى منهم ولهم ، تقوم عنهم بالتربية والتعليم وسائر الخدمات الصحية والاجتماعية . .

الجلباب الأزرق

. . انعكست صورة البيئة الطبيعية ، أو خصائص الوطن على المجتمع المصرى فبدا قوامه مطابقاً لقوام تلك البيئة وذلك الموطن . وإذا كنا لانزال نردد ما قاله المؤرخ القديم « هيروروت » من أن مصر هبة النيل ، فليس ذلك لأن النيل هو الذى أكسبها تربتها الخصيبة السوداء فحسب ، ولكن لأنه أعطاها أيضاً صورته وخلقه، والكيان الاجتماعى المصرى، كالمدرجات النيلية سواء بسواء ، فهو لا يقوم على التباعد ، ولا على التنافر بين طبقاته وعناصره ، بل يقوم على التآزر والتماسك بين تلك الطبقات وهذه العناصر. والتآزر والتماسك لايمكن أن ترث حبالهما ، أو تضعف روابطهما ، لأن المجتمع المصرى كله ، يقيم حياته على تعاون أجزائه وتضامن جوارحه ، وتساوق خطواته . ولعل أبرز الشخصيات الخاصة فى الكيان الاجتماعى المصرى ، إنما هو « الفلاح » الذى قام ويقوم باستنبات الأرض ، واستخلاص ما تنتجه من ثمرات . من أجل ذلك كان هذا الفلاح هو أقدم وأثبت الشخصيات أو النماذج البشرية فى المجتمع المصرى ، كما كان دعامة من أقوى الدعامات التى يرتكز عليها هذا المجتمع ، فمجموع أكواخه فى القرية والأرض التى يفلحها هو الأساس الأول ، وما المدينة إلا جزءٌ منه ، وإشعاع عنه ، والترابط بين الحقل والقرية والمدينة هو

الأصل ، وضعفه وفقدانه انحراف عن هذا الأصل ، وخروج على مقتضيات التآزر والتماسك الذين يتسم بهما المجتمع المصرى .

والقرية المصرية تُباين من حيث الشكل القرى المتناثرة فى أوروبا ، لأنها مجموعة من الدور المتلاصقة التى تكاد لفرط التصاقها تكون وحدة مترابطة لا يبعد جزء من أجزائها عن الآخر ، أما فى أوروبا فنحن نجد القرية تتألف من دور منفصلة بين كل منها والآخر مسافات تتفاوت قرباً وبعداً . ولهذا التلاصق فى قريتنا وظيفة اجتماعية ما فى ذلك شك . ومن اليسير أن نتعرف على هذه الوظيفة إذا نحن أدركنا ما كان يتعرض لها الفلاح المصرى فى تاريخه الطويل من الأذى والاضطهاد ، واستنزاف المحصول ، واستياق الأموال فأحس بأنه لا يمكن أن ينفرد بذاته ، وأن قوته كواحد من الآحاد ، لاتستطيع أن تدفع عنه عادية التهجم والاضطهاد والاغتصاب ، ومن أجل ذلك اندفع إلى التآزر مع أقربائه ، وبنى جلدته فى صعيد واحد ، وألّفوا مجتمع القرية ، وبنوا مساكنهم على هذا الطراز الموحد فى الشكل ، وعلى هذا النمط المتساند المتلاصق ، فضرورة الأمن الجماعى هى التى رسمت القرية على هذه الصورة منذ قرون وقرون ، فإذا ألمّ بالفرد ما يهدد ذاته أو أهله أو حيوانه خف جيرانه إلى نجدته !

وكما يتشبث الفلاح المصرى بأرضه ، ولا يحب أن ينتزع منها إلا إذا أكره على ذلك إكراهاً ، فإنه يحب النيل وفروعه وترعه وقنواته حبًّا معنوياً وماديًّا فى وقت واحد . . يحبه ويقدسه كما أحبه أجداده وقدسوه ، ويحبه لارتباط حياته به إرتباطاً لا يمكن أن ينفصم ، فلا هو ولا أهلوه

ولا حيوانه يستطيعون العيش بدون هذا النيل ، ومن ثم حرص على مياهه التى يستقى منها كما تستقى أرضه ، وهو لا يعدل بها مياه العيون التى تتفجر من جوف الأرض أو التى يمكن أن تصعد إلى سطحها تصعيداً آلياً . وأدى به تفكيره فى فعل النيل بأرضه ، وعمله على تخصيبها وإنباتها أن يزاوج بين هذه الفكرة وبين فعل النيل فى جسمه ، فقرن بين ماء النيل، بل وطمى النيل وبين صحته وقدرته على العمل وتواصل الحياة بعده ، ولهذه الرابطة بين الفلاح المصرى وبين النيل مظاهر متعددة : أولها : ما شعر به من ضرورة التعاون فى الحصول على مياه النيل ، وثانيها : وهو يتفرع عن الأول ، عمله على تنظيم الحصول على هذه المياه بشق الترع والقنوات ، وثالثها : النهوض بإقامة الجسور عند الفيضان ، ومن ثم فطر الفلاح المصرى على مسايرة الطبيعة فى انتظام الفصول والفيضان واستجاب لهذا الانتظام فى بذر الحب والحصاد جميعاً ، وفى تهيئة الأرض وريها قبل ذلك ، كما فطر على عدم الاستقلال بنفسه ، واعتزال الآخرين فى محيطه ، ووجد أن ضرورة الحياة تلزمه وتفرض عليه التعاون فى العمل والتضامن فى التبعة والمسئولية .

والأصل فى هذا النموذج الإنسانى أنه ابن الأرض ومالكها وزارعها والمفيد منها ، وهذا الأصل هو الذى جعل الفلاح يحرص أشد الحرص منذ أقدم العصور على تثبيت ملكيته للأرض ، وتسجيل هذه الملكية بحيث لا ينازعه ولا ينازع ذريته فيها أحد ولا يغتصبها منه أو من ذريته أحد ، وجاءت القوانين التى دونتها الهيئة الاجتماعية تأكيداً لهذا الغرض

وتأصيلا لهذا العرف : وكان الأصل القديم كذلك أن تتسع دائرة التعاون بين الأفراد حتى تشمل المجموعات البشرية التي تقوم بفلاحة الأرض في شتى الأقاليم التي ينتظمها الوطن المصرى . وقد مر بنا نزوع هذا الوطن إلى التوحد بفعل طبيعته المادية ، ومن ثم كانت السمة الأولى والأصيلة ارتباط الحكومة بالقرية وتنسيقها بين مصالح الجميع بلا استثناء .

وظل الفلاح يقوم بعمله في استنبات الأرض أحقاباً لا يكاد يحصيها العد ، ولكنه تعرض في أثناء تاريخه الطويل لعوامل أقوى من إرادته . . عوامل فكرت في المصالح القريبة لبعض الأفراد والدول والطبقات دون أن تدرك خروج فعلها على طبيعة الحياة وفطرة الناس في هذا الوطن المصرى . . عوامل سخرت الفلاح واستعبدته وملكت الأرض دونه ، واحتكرت الخير الذى يثمره . وكثيراً ما كانت تقاوم هذه العوامل فيوقف تيارها حيناً ويتغلب عليها حيناً آخر ، ولكنه لا يكاد يفيق من أحدها حتى يأخذه آخر ، وكأنما كانت سياقاً مضطرداً لا فرجة فيه . وأدى به هذا الصراع إلى ما يشبه الاستسلام والركون إلى اليأس .

وقد مر بنا تأثير هذه المغالبة للظروف القاهرة على المزاج المصرى بعامة ، وعلى مزاج الفلاح بخاصة ، وكيف اضطر إلى الخروج النفسى من الأحداث التي يتعرض لها ، والاستعلاء عليها بالفكاهة والتندر والسخر ، وكأنها أحداث لا تقع له ولا تحيق به ، وإنما يتعرض لها غيره ممن لا تربطه بهم مشاركة وجدانية ما . وأصبح الفلاح أوفى إلى المتفرج على الأحداث منه إلى الواقع فيها والعامل على التخلص منها ، ثم أصبح مستسلماً لما يأتى

به الغد وكاد يفقد ثقته بنفسه وإرادته وبقدرته على تغيير الظروف .

ونحن إذا لاحظنا الأدب الريفى ، فسوف تطالعنا حقيقة بارزة ، وهى رنة الخوف والأسى التى تغلب على أغانيه ، بل إن المواويل التى كان الأصل فيها استثارة الحماسة رفعاً للروح المعنوى وشحذاً للهمة وتهيئاً لكفاح عدو ، نُسى غرضها الأول وانطمس معناها الذى أكسبها هذا اللون الأحمر فى التسمية ، وأصبحت كالمواويل الخضر التى تتغنى عواطف الاستقرار والسلم والغزل وما إلى هذا بسبيل ، كما أن نغمة هذه المواويل عند الإنصات إليها واحدة ، تشترك كلها فى الأنين والشجن والبكاء على مفقود . والمعنى المستخلص من هذه الظاهرة هو أن الفلاح لم يعد يستجيب لأغراض الحماسة لطول ما تعرض له من ظلم ، أما الملاحم الشعبية التى يقبل الفلاح على تذوقها ويتفاعل معها فقد كانت وظيفتها الأولى أن ترسم له المثال الاجتماعى الذى ينشد ، مثلها فى ذلك مثل التاريخ القومى ، فهو يسمعها على أنها حقيقة وقعت بالفعل ، وليس من تلفيق القصاص أو مبالغة المنشئين . . ووقائع حدثت لقومه وعشيرته أو حدثت لجماعة بينها وبينه صلة رحم ، فهى ترسب تراثه ، وتجسم فضائله ، وتظهر ما خفى من نزعاته ، وترسم مثله فى الحياة الخاصة والعامة ، وتعوضه عن النقص الذى يستشعر به ، ولكن هذه الوظيفة الإيجابية تحولت على الأيام إلى وظيفة سلبية . . تحولت من استثارة انفعال تفيد منه الحياة إلى التنفيس عن شعور لم تعد الحياة تطيقه ، وانحرفت الحقائق التى كان يتصورها فى هذه الملاحم ، إلى أشباح لا واقع لها ، ولا تأثير إلا تفريغ شحنة شعور

مكبوت بوسيلة تقوم على الإيهام والتنحيل ، مثلها فى ذلك مثل الأحلام سواء بسواء .

وشاهد الفلاح المصرى أحداثاً كثيرة متعاقبة ، ولكن هذه الأحداث متشابهة الصور متماثلة المشاهد .. دول تذهب ودول تجيء ، وأمراء إقطاع يجيئون ليحل محلهم إقطاعيون آخرون ، وأجانب يبسطون يدهم على الوادى الخصيب ، ويستقرون زماماً فتغنيهم الطبيعة المصرية فيما تغنى ، أوتلفظهم فيما تلفظ . ويساق لمعارك لا شأن له بها ، ويسخر فى أعمال لا نفع له منها ، والأرض على حالها ويكره على فراقها وتنشأ ذريته عليها ، وتكره هى الأخرى على فراقها وهكذا دواليك .. والترع التى شقت والطرق التى مهدت ، والأرض التى استصلحت ، تهمل عصوراً وتذهب معالمها وتصبح عملاً من أعمال الأثريين والمؤرخين ، ويشق غيرها وتعدو عليه بعد حين الكثبان السافيات أو الرمال المهيلة ، وتأخذه الطواعين من أقطاره ، أو تتخطف أجياله ، وتضطره فى كثير من الأحيان إلى أن يستحل ماحرمته فطرته ، فيأكل دواب الحمل ، وينبت ما بينه وبين المدنية ، وتتقطع الأواصر بينه وبين الحاكم الأجنبى جاءت به ريح مسموم ! ويتأمل حواليه فيرى الكشاف يجوسون خلال أرضه . ينوشونه بسيوفهم وخناجرهم ، ويضربونه بالسياط ويستاقون أنعامه ، ويغتصبون محصوله ويحبسون أشياخه وهو يقاوم حيناً ويصابر أحياناً فلا غرو أن تنسلخ عنه إرادة الحياة والقدرة على تغيير الظروف . ويعجز عن التجمع الذى يكسبه المنعة ، ويمنحه التآزر أو الدفاع عن الذات الجماعية العامة .

شاهد المماليك ينوش بعضهم بعضاً ويجتمعون عليه .. شاهدهم أحزاباً متناحرة . الأمراء القبالى فى الصعيد وشيخ البلد وعصبة فى القاهرة وغير أولئك وهؤلاء ، ثم شاهد العثمانيين إلى جانب البكوات المماليك ، ورأى الباشا التركى يحتقر المصريين لأنهم فلاحون ، واستمع إلى الشنك ابتهاجاً بالقاصد من « الديار الرومية » ومعه الهدايا والخلع . . وشاهد كل مدينة تقوم برأسها مستقلة عن الأخرى ، لا يقدم إليها بمحصوله إلا إذا مُكس على كل شيء . . مكس حتى على الملح . . ومصالحه لا يمكن أن تقضى إلا بالرشاء وما أفدحها . . خاقان البحرين يقبل الرشاء ، وممثله يقبل الرشاء ، والبكوات والكشافون ومن لف لفهم أو عمل معهم يقبل الرشاء ، وانطبعت هذه الصورة فى نفسه ، ثم استقرت لا يزايلها ، وعبر فى أدبه الذى يتذوقه ويتفاعل معه عن هذه الصورة المريرة تعبيراً قويًّا خصباً ، فنحن نرى فى سيرة الظاهر بيبرس ــ مثلاً ــ كيف أن المصريين ضاقوا ذرعاً بديوان الحكومة فأنشأوا لأنفسهم ديواناً شعبيًّا آخر تقدم إليه الظلامات وتمتنع فيه الرشوة ، ويستقيم ميزان العدل ، وهذا الديوان لا يصد أحداً ولا يمنع أحداً . . الفلاح المحتقر من البكوات والبشوات يستطيع أن يصل إليه ، ويستطيع أن يعرض ظلامته ، وأن يأخذ حقه ، وهذه الصورة تشبه إلى حد بعيد بعض ما أثر عن الأدب فى أيام الفراعين كقصة الفلاح الفصيح المشهورة . .

وحاول الغرب أن يبسط كفه على الوطن المصرى ، وفشلت محاولته المجسمة فى قوة نابليون وخليفتيه ، ثم نجحت على يد الإنجليز ، وقيل

العثمانيين ، وبلغت مسامع الفلاح أصداء أقوال ترددت فى المدينة . . ونادى بها المنادون فى القرى ، وهى أن الوافدين الأجانب جاءوا للقضاء على تسخير الفلاح والكرباج والاستغلال . . جاءوا لتخليصه من ربقة الباشوات . ولم يصدقهم لأن فطرته كانت أسلم من أن تجوز عليها خدعة كبيرة كهذه ولأنه هو الذى تألف منه جيش عرابى ، وقاوم هذه الموجة وأحس خيانة الأرنؤوطى وشيعته من بعض الإقطاعيين وضعاف النفوس . ولم يكن قبل ذلك يثق فى أمثال هذا القبْل فعلى يد كبيرهم أحرقت حجج الأملاك ، وكان إحراقها مناقضاً للفطرة المصرية الزراعية المستقرة وهو الذى احتكر الأرض كلها دون أصحابها والملتصقين بها أو العاملين على إنباتها . وكان الفلاح مطمئناً إلى أن الصورة ستتكرر وإن تغيرت السحن والأزياء، وإن جاءت بشعارات أخرى . . شعارات لا مدلول لها ولا معنى .. شعارات لا تحمل صدقاً ولا تدفع إلى سلوك يغير هذا الواقع المرير . . وعادت شيع تلتف حول فرد من الأفراد كشيع شيخ البلد والأمراء القبالى.. والحبال الثلاثة التى تلتقى وتختلف هى بعينها ، فمكان القبْل آخر تغير لقبه ، ومكان الباشا العثمانى معتمد يمثل جيش الاحتلال ، ومكان المماليك هذه الشيع . وظل الإقطاع الزراعى يغلب على الكيان الاجتماعى فى الريف ، وإن فقد وظيفته التى كانت له فى القرون الوسطى . ذلك لأنه كان وقتذاك سمة من سمات التطور ، يقوم بصورة من الصور على التكافل الاجتماعى ، ولكنه تحول أواخر القرن الماضى ونصف هذا القرن إلى إقطاع غشوم لا يحس بأية رابطة بينه وبين الأرض ومفلحيها ، إلا

ما يستاقه من خيراتها .

وشهد الفلاح المصرى فوق هذا كله جمود الأرض الزراعية على حالها ، وازدياد عدده إلى حد يتجاوز طاقتها بكثير ، واجتذبته أنوار المدينة التى يستقر فيها السلطان ، وتتركز الثروات ، فاضطر إلى أن يهجر الكثير من أفراده الأرض التى عاش عليها هو وآباؤه أجيالاً وأجيالاً . ولم يحس أحد ببواعث هذه الهجرة ، وكل الذى تصوره الدارسون وقتذاك . ما تستحدثه من نقص فى العمل الزراعى الذى يحتكره الإقطاع فى المدينة وينفق أكثر غلته فى خارج الحدود المصرية . ولم يلاحظ أحد أن هذه الهجرة إنما هى بطالة زراعية ، لأنهم عنوا بالبطالة الصناعية وحدها ، مسايرة لنموذج الحياة الغربية مع أن الريف المصرى تعرض لتلك الظاهرة التى وقعت لريف أوروبا الغربية إبان ما أسموه بالثورة الصناعية ، وأصبحت فى مصر ، قرية مهجورة تشبه فى بعض الوجوه تلك التى وصفها الأديب الإنجليزى « أوليفر جولد سميث » عام ١٧٧٠ . وكان طبيعياً ألا تستوعب الصناعة هؤلاء المهاجرين جميعاً ، وهم المهاجرون الذين تحولوا فجأة من بيئة اجتماعية لها مقوماتها إلى بيئة اجتماعية أخرى لها مقومات تغايرها ولذلك اضطروا أن يقوموا بأعمال هينة غير ذات خبرة وتعرضوا فى الوقت نفسه إلى ضروب من الصراع النفسى استحدثته النقلة من إطارهم الاجتماعى إلى هذا الإطار الجديد فى قلب المدن أو عند أرباضها . وكثيراً ما لفظهم سوق العمل الصناعى وأرغمهم على البطالة المؤقتة أو الدائمة وكان من المتعذر عليهم أن يعودوا إلى بيئتهم الأولى وأن يندمجوا فى النموذج الاجتماعى

الذى كانوا يحاكونه قبل مهاجرة الريف . .

وكان الجلباب الأزرق شارة على القطيعة التى استحدثها الطغيان والاستعباد بين أهل المدن وأهل الريف ، وأصبح يجسم نوعاً من الوعى الطبقى المصطنع الذى يدعو إلى استعلاء أولئك على هؤلاء ، وأن المصريين بعامة والفلاح بخاصة ليذكر كيف كان الاستعمار الأجنبى يؤكد هذا المعنى ويكرره بمناسبة وغير مناسبة ، ويطلق على الفلاحين « أصحاب الجلاليب الزرقاء » وذلك لكى يباعد بينهم وبين غيرهم من المواطنين ولكى يستحدث على أساس الاختلاف فى الزى واللون شعوراً بالمغايرة بين المتعلمين فى المدارس الذين انسلخوا عن القرية والأرض وبين آبائهم وإخوتهم فى الريف . وليس من شك فى أن هذا الاستعمار كان يعمل عن وعى لتغيير النماذج العامة ، والوقوف فى وجه وظائفها الاجتماعية الإيجابية ، فقد حرص منذ اللحظة الأولى على أن يسلخ المدارس ومعاهد التعليم عن القرية وعن الأرض ، ولذلك فرض عليها زياً معيناً وجعل برامجها تنحصر فى معارف نظرية لا علاقة لها بالحياة العملية ، وأقام فلسفتها على التلقين وفقدان الشخصية ، وأحاطها بالنظام الشكلى المحكم . وهو على الرغم من فشله فى فرض لغته على الشعب المصرى عن طريق التعليم ، وعلى الرغم من فشله فى تقديم الجزر البريطانية فى جغرافيتها وتاريخها على الوطن المصرى بخاصة والعربى بعامة ، وعلى التراث القومى العريق ، فإنه لم ييأس قط من محاولاته المتعددة فى فصل المدرسة عن « أصحاب الجلاليب الزرقاء » كما كان يسميهم . واستحدث هذا الفصل بالضرورة هجرة منظمة أخرى من

الريف إلى المدن ، ذلك لأن التعليم كان يعنى امتيازاً اجتماعياً ووظيفة فى الحكومة . وكان الصبى يهاجر من القرية إلى عاصمة المديرية ثم إلى القاهرة وبذلك تنبت أكثر علاقاته بالريف . فإذا التحق بسلك الوظائف مرءوساً للإنجليز كان عليه أن يبتعد عن مسقط رأسه ، وكانت هذه الهجرة وخيمة العاقبة على القرية المصرية لأنها لم تنتفع بأفرادها المتعلمين إلا بمقدار ، ولو أنهم تعلموا وعملوا فى القرية أو بالقرب منها فى الإقليم لازدادت علاقاتهم بقراهم وأراضيهم قوة وتماسكاً ، ولاستطاعوا باستقرار حيواتهم وقدراتهم الموصولة طول العام على الشراء أن ينهضوا بالقرية ويصلحوا أوضاعها الاجتماعية ، ويعينوها على التطور ، ويرفعوا من مستوى المعيشة فيها ، ويواجهوا مع إخوتهم ، وأبناء عمومتهم شتى المشكلات التى تعرض للريف ، ولجاء التغيير داخل القرية ، ووفق نماذجها المألوفة ولم يأتها من خارج ذاتها ، ووفق نماذج لا عهد لها بها فتنجو من التردد والصراع الذى مزق الجهود وجعلها آلية لا تحمل مضموناً نفسياً واجتماعياً .

والذين يتخصصون فى علم النفس الجنائى يعلمون من غير شك أن للجرائم التى تقع فى الريف طبيعة خاصة فى حوافزها ووسائلها وغاياتها ، وأن هذه الجرائم كان مبعثها الأول انخفاض مستوى المعيشة انخفاضاً شديداً ، وهو انخفاض لم يكن له مثيل إلا فى البلاد التى بلغت من التخلف الاقتصادى درجة كبيرة جداً . واحتفاظ الريف برواسب من تقاليد سابقة على الاستقرار الزراعى ، وبعضها رواسب قبلية يدل لا على ضعف سلطان الدولة ولكن على ضعف الرابطة بين الريف وبين الدولة

زماناً طويلاً ، فقد شهد الفلاح المصرى كيف كانت الدولة أجنبية عنه، مسخرة له ، وشهد كيف كان الحكام وأشياعهم يتطفلون عليه . . شهد الضرائب التى كانت تقدر وفقاً لحاجه هؤلاء الحكام وممثليهم لا وفقاً للأرض التى يملكها والغلة التى تأتى بها ، بل كيف كانت تجبى أكثر من مرة فى العام الواحد ، وكيف كانت تجمد مقاديرها على الرغم من التغير الذى يحدث فى رقعة الأرض التى تنسب إليه ، والأشجار والنخيلات التى تقوم فيها ، وكان يكره على أن يدفع هذه الضريبة أضعافاً مضاعفة ، وعلى أرض لم تعد له وعلى شجر اجتث من الأرض اجتثاثاً . وهذا النظر هو الذى جعله يحتفظ فى بعض البيئات بالثأر ، فلم يكن يؤمن بأن الدولة منه وله ، وأنها بهذا المفهوم تنوب عنه فى القصاص . وإذا كان هو ولى الدم فإن نيابتها عنه لا تغير من الواقع النفسى شيئاً إذا كان مقتنعاً بأنه الدولة . . ولكم احتفظ الوجدان الشعبى بهذه الحقيقة ووقف منها موقف الفلاح نفسه لا موقف الدولة الأجنبية . ونحن لا نستطيع أن ننسى تلك الملحمة التى تصور هذا الصراع والتى عاشت فى قلب الريف منتصرة للشعب فى وجه السلطة التى لا شأن له بها ، ونعنى بهذه القصة « موال أدهم الشرقاوى » وهى تكاد تكون ملحمة شعبية كتلك الملاحم التى عبر بها الشعب المصرى عن وجدانه الجماعى ، وإن ألفت بعدها بزمن غير قصير ، وهذه القصة تجسم نموذجاً عامًّا لم تستطع الحكومة الأجنبية أن تقاومه أو تتغلب عليه ، وتتحدث عن شاب نال ثأره بنفسه وهى من أجل ذلك تمجده ولا تنقص صنيعه !

وقد مر بنا فى الفصل السابق احتفال المجتمع باللبنة الأولى وهى الأسرة ، ذلك الاحتفال الذى يدرك أنها الأساس الأول الذى يقوم عليه الكيان الاجتماعى كله ، وغرضنا لاهتمام المجتمع بتلك الآصرة المقدسة بىن الشريكين ، وبينهما وبين أبنائهما ثم بينهما وبين المجتمع بأسره ولسنا نريد أن نعيد ما قلناه فى ذلك الفصل ، وحسبنا أن نذكرها ما التفت إليه علم النفس الجنائى أيضاً ، وهو الحرص على الشرف أو العرض وبخاصة عند المرأة ، فإن المجتمع الريفى متشدد فى هذه الناحية إلى أبعد حد ، والقرية المحدودة تفرض على أهليها رقابة اجتماعية كرقابة الضمير على كل فرد . وهذه الرقابة الاجتماعية تضبط أو تكاد سلوك جميع الأفراد ، وترسم لهم نموذجاً اجتماعيًّا لاينبغى عليهم أن ينحرفوا عنه بحال من الأحوال . وبعض المجتمعات الريفية ، بل الأصح أن نقول إن أكثر المجتمعات الريفية ، تحكم على الفتاة المنحرفة أو المرأة المنحرفة ولا تترك ذلك للقانون الوضعى ، فالعرف عندها — كما سبق أن قلنا — أقوى من القانون المكتوب ، وأكثر تمكنا من النفسية الريفية ، وهى النفسية التى لا يمكن أن تقنع بأن ينوب عنها فى المحاكمة والحكم جميعاً أحد كائناً من يكون . والشأن فى هذا كالشأن فى الأخذ بالثأر ، فلو أن المجتمع الريفى كان قد اقتنع بالعلاقة الإيجابية بينه وبين الدولة ، واستيقن من أنها منه وله وبه ، لاستطاع أن يكل الحد إلى سلطة القانون الوضعى . . وللمجتمع فى الريف عادات تجسم هذا النزوع إلى الأخذ بالثأر والانتقام للعرض ، تجسمها الانصراف عن الاغتسال ، واعتزال الناس أو عدم الاحتفال بدفن القتيل ، والرغبة عن نظافة الرداء ، وشال

العمامة وما إلى ذلك من الرموز التى تعبر فى ذاتها عن انفعال معين ، والتى تذكر فى الوقت نفسه بهدف معين لا يستطيع صاحبه أن ينساه مهما طال الزمن . . ويظل المجتمع متيقظاً لذلك الهدف مطالباً بوقائه ، والفرد الذى لا يقوم بتحقيقه ، يتعرض لعقد المجتمع ويختل التوازن بينهما ، وكثيراً ما يرغم الفرد على الخروج من إطار مجتمعه إلى حين ، لا لكى ينسى ذلك الهدف ولكن ليتربص بواتره ، أو بالفتاة أو المرأة المنحرفة عن نموذجها الاجتماعى ، وينتهز الفرصة ليأخذ بثأره أو يغسل العار عن نفسه وعن نفوس أهله .

ولسنا نستطيع أن نتحدث عن الفلاح المصرى دون أن نشير إشارة خفيفة إلى ملاحظة بعض علماء النفس الاجتماعى ، من شيوع وسائل التخدير والفرار من الحياة ، ولقد كانت إلى عهد قريب ظاهرة واضحة فى الريف لم تجد فيها وسائل القمع ، وهذا الجنوح إلى السلبية فى مواجهة الحياة وإلى اصطناع التخدير لتحقيقها إن دلت على شىء إنما تدل على أن الفلاح ضعف روحه المعنوى ، وعجز عن مقاومة ظروفه ، ووقع فريسة سهلة لهذه الوسائل التى تغل عزيمته ، وتشل إرادته ، وتضعف قدرته على الإنتاج . وكانت الحكومة الأجنبية عنه ، تنظر إليه على أنه قوة بشرية إنتاجية فحسب ، ولا تفكر فى نفسيته ولا تلقى بالها إلى الحوافز العميقة ، والتجاريب المريرة التى دفعته إلى هذا الاستسلام . وكان ينبغى أن يصاحب التقنين والقمع علاج اجتماعى واقتصادى معاً ، يرفع معنويته فى نظر نفسه وفى نظر مجتمعه ، ويجعله إنساناً له كرامته الإنسانية ،

ولو كان قد تحقق له ذلك لانصرف عن تخدير نفسه ، وإضعاف صحته ، والقضاء على حيويته ، ولما اصطنع هذه الوسائل مسايرة منه لعدم الرضا بحاضره والفرار من واقعه إلى خيال مصطنع مكذوب . .

ولم يطل بصاحب الجلباب الأزرق ـ كما كان يسمى ـ الانتظار. فقد تغيرت الصورة التى أنكرها أجيالاً متتالية . . تغيرت لأن البيئة المادية كان لا بد لها من تغيرها ، فإن فطرة الوطن المصرى التى تنزع إلى التوحد والاستقرار والتعاون ، استطاعت أن تتغلب على العوامل الخارجية والبواعث المصطنعة . وكان هذا التغيير فى الوقت نفسه انتقاماً للتاريخ القومى الصحيح الذى لم يلتفت إليه الطغيان والتطفل والتفريق . وحكما من الأرض الطيبة على الذين قطعوا صلاتهم بها ، وظلوا مع ذلك يستنزفون خيراتها وينفقونها على ملاهيهم فى المدينة التى استقروا بها بل وفى خارج الحدود المصرية . وشهد الفلاح المصرى قبيل الثورة مظهراً رائعاً من مظاهر الصراع بين نموذجين اجتماعيين ، نموذجه الذى رسبه تراثه وعُرفه المستخلص من فطرته ومن فطرة موطنه ونموذج أجنبي عنه يخالفه فى الصورة والمضمون جميعا . . فقد شهد الفلاح المصرى كيف هرع الإقطاعيون إلى أرضه الطيبة إبان الحرب الكبرى الثانية ، يوم دخلت إيطاليا الميدان إلى جانب حليفتها ألمانيا ، ليحتموا من النسور المنقضة ، ومع أن الأرض السوداء قد وهبت القدرة على هضم جميع العناصر وتمثلها ، فإنها لم تستطع فى هذه المرة أن تقبل أولئك المتطفلين ، الذين عاشوا أعمارهم على حساب صاحب الجلباب الأزرق الابن الشرعى لهذه الأرض فأبت عليهم أن يزحموه ، وطردتهم عن

صدرها إلى حيث كانوا فى القصور المنيعة والأبراج المشيدة فى جو متكلف ، ويطعمون بغذاء صناعى مثلهم فى ذلك مثل الطفل . . يحال بينه وبين الرضاع وكانت لهم فى الاستعلاء على الأرض ومفلحيها مفارقات التقطها الوجدان الشعبى وصورها فى أدبه العابر الذى لو سجل لكان وثيقة نفسية واجتماعية تجلو غوامض الصراع بين نفسيتين مختلفتين ، وإطارين ثقافيين متباينين .

وجاءت ثورة الوجدان الشعبى الذى أكد النماذج الاجتماعية المستخلصة من خصائص الوطن المصرى ومقومات الشعب المصرى والتراث المصرى . . جاءت هذه الثورة تنفذ حكم الأرض الطيبة على ذلك الإقطاعى المتطفل الذى لفظته الأرض الطيبة لتنفذ حكم الحياة على الذين استعلوا على هذه الحياة . ومن هنا كان قانون الإصلاح الزراعى يقظ الوجدان الشعبى ممثلاً فى الفلاح ، وكان حجر الزاوية فى ثورة وجدانه ، لأنه ساير الواقع المصرى الأصيل المتطور ، ونمى عن الأبناء الشرعيين للأرض ، أولئك النفر الذين استرقوهم واستحلوا كل ما تغل أيديهم ، وهو القانون الذى حال بين الفرد أياً كان وبين التحكم فى مصائر مواطنيه وإراداتهم كلما انبسطت يده على رقعة الأرض .. وهو القانون الذى اعترف بالعمل الزراعى وضبط الجزاء عليه ، ورخص له بالجهد النقابى لتنسيق مصالحه والتعبير عن مشيئته وتدبير أموره ، وهذا القانون يحقق أملاً استشعره صاحب الجلباب الأزرق منذ قرون وظل يجسمه فى أدبه الشعبى ويعبر عنه فى انتفاضاته المتكررة على مدى التاريخ .

واستهدفت ثورة الوجدان الشعبى منذ اللحظة الأولى تحرير الأرض وإعادتها إلى أصحابها الحقيقيين وهم الفلاحون ، وشرعت توزعها عليهم فأصبح المفلح الأجير فى التفاتيش والدوائر المصادرة والضياع والإقطاعيات حرًّا فى أرضه سيداً فى عمله غير تابع لفرد ، وغير مستذل لفرد ، وغير مورث لفرد . وأصبحت الشئون العملية الزراعية من اختصاصه دون سواه لا يتلقى الأوامر عنها من رجل أو سيدة فى حاضرة مصرية أو أوروبية بطريق مباشر أو عن طريق وسطاء وموظفين وهو بذلك يستكمل مقومات شخصيته الفردية والاجتماعية ، ويستطيع أن يبديها كما فطرها الله لا كما أرادها المتطفلون المحتكرون القدماء . ويستطيع أن يعلن عن رأيه الصريح فى الشئون العامة والخاصة على السواء بريئاً من الخوف . خالصاً من الكناية والرمز . وهكذا يبدأ الفلاح المصرى سيرة جديدة فى ظاهرها وفى جوهرها أيضاً . ويستعيد النموذج الاجتماعى الذى يساير منطق بيئته ومجتمعه والذى يتفاعل مع حوافزه الأصيلة وآماله المرجوة ويتحقق له اتصاله بالأرض على نحو لا يُكره عليه ولا يفزع منه ، وحبه للتربة السوداء التى صاغت تراثه الثقافى كله . ويتحقق له فوق هذا التعاون بين أفراده والتكافل بين جماعاته . ويعيد ما انبت من علاقة بين الأرض والقرية والمدينة ويتسع وجدانه بحيث يشارك وجدان الوحدات الاجتماعية الأخرى التى تنتظم الشعب المصرى . ويقيم حياته سواء أكان فى قريته أم فى مدينته أو فى موطنه وسواء تعلم أو تحول إلى الصناعة أو أحرز منصباً من المناصب وهو يستشعر الأخوة الكريمة بينه وبين مواطنيه على اختلاف منابتهم وأعمالهم .

ويتخلص من تلك العقد النفسية التى كمنت فى أطوائه عندما استعلى الآخرون عليه .

وإذا كان بعض الدارسين يقررون أن « المدرسة » كانت فيما مضى ملحقة بالمعبد أو الكنيسة أو المسجد ، ثم أصبحت بعد ذلك منظمة متفاعلة مع بيئتها ومجتمعها ، فاتصلت فى الغرب بالصناعة والتجارة ، فإن اللامركزية الحقيقية سترد التعليم إلى البيئة الريفية وتجعل المدرسة ملحقة بالحقل ، متفاعلة معه مفيدة له . وهذه اللامركزية نفسها ستقضى بذاتها أو تخفف من هجرة أبناء الريف إلى المدن . . ستقضى أو تخفف من هجرة الباحثين عن عمل لجمود رقعة الأرض واكتظاظها بأهليها ، لأن الأرض ستتسع بالمشروعات الضخام كإقامة السد العالى ، ولأن قدرتها على الإنبات ستزداد . . ستقضى أو تخفف من الهجرة المنتظمة بفعل التعليم فتفيد القرية من المتعلمين ويأتيها الإصلاح من داخلها لا من خارجها ويتم على يد أبنائها لا على يد غيرهم ووفق نموذج اجتماعى مستخلص من واقع الحياة فى القرية نفسها . . وعندما تتم المشاركة الوجدانية بين النموذج الاجتماعى فى بيئة الفلاح والنموذج الشعبى العام ، وتعود إلى المجتمعات الخاصة وظائفها الإيجابية ويتحقق لها الارتباط الذى تمليه الحياة الجماعية الصحيحة فإن كثيراً من العادات والتقاليد التى لم تعد تلائم التطور سيختفى من التراث الثقافى للفلاح المصرى فى شتى أقاليمه . وليس من شك فى أن اطمئنانه إلى أن الدولة قد أصبحت جزءاً لا يتجزأ منه سيجعله يركن إلى قصاص الهيئة الاجتماعية ممثلة فى سلطة القانون لأن وجدانه الخاص قد

أصبح جزءاً مكملاً للوجدان القومى العام ، ولأن إرادته الخاصة تمتد فى إرادة الدولة ، فإذا نابت عنه فى القصاص فليس معنى ذلك أنها غيره ، كما كان الشأن فى الماضى ، ولكن المعنى أنها تمثله وأن ولا يته للدم هى بعينها ولايتها . . ولن يحتاج صاحب الجلباب الأزرق إلى أن ينعت بهذه التسمية فالأمر تقسيم عمل لا اختلاف درجة ولننتظر من إقباله على الحياة وقدرته على مسايرة التطور ومعاونته فى الخدمة العامة ، أن تتغير نبرته من الأسى القديم . إلى البهجة وأن ينفض عن نفسه ذلك الاستسلام لما تأتى به الظروف والفرار من الواقع بوسائل مصطنعة ، والإفادة من التعليم فى رفع مستوى معيشته . . لن يكون الفلاح المصرى رقماً من الأرقام أو شبحاً من الأشباح . . لقد استكمل مقومات شخصيته الكريمة على نفسه وعلى مجتمعه .

أسوار المدينة

ثلاثة أجيال فقط تصوّر تحولا خطيراً من حياة المدينة ، وتكشف عن معُدّل التغير الذى تزداد سرعته إلى حد غير ملحوظ ، ذلك لأن صورة المدينة عند الجيل الأول تكاد تكون هى الصورة التى كانت عليها إبّان تاريخها الطويل ، فقد كانت أولا وقبل كل شىء قاعدة عسكرية قائمة برأسها يستقل فيها أهلوها استقلالا ذاتيًّا ، بكل ما تحمل كلمة الاستقلال من معنى ، اللهم إلا أن تعتمد على مساحة مناسبة من الأرض الزراعية تمدها بما تحتاج إليه من غذاء كما تعتمد ، شأنها فى ذلك شأن المجتمعات البشرية الأخرى ، على ضرب من الاتصال ، المنتظم وغير المنتظم ، بينها وبين غيرها من المدن والأقاليم ، لتحصل بذلك على السلع المصنوعة والمواد الأولية التى لا توجد فيما جاورها من الأرض . وأول ظاهرة اتسمت بها فى تلك الفترة الطويلة من تاريخها ، انحصارها بين سور يحيط بها من جميع أقطارها ، تتخلله فى مواقع بذاتها أبواب ضخام تفتح عند الفجر وتغلق عندما يسدل الليل ستاره على الناس والكائنات ، وعلى هذا السور أبراج للمراقبة ، ووراء الأبواب حرس ، وبالقرب من هذا كله قطائع الجند تُحشد عند كل إشارة حماية للمدينة وساكنيها من هجوم عدو ، أو تقحّم قطاع طريق ، وأبواب المدينة تغلق حتى فى النهار عندما ينزل بالناس وباء يحاولون مدافعته عن مدينتهم . . وكانت المدينة تنقسم على

أساس إقطاعي ومهني ، فقد كانت حاراتها عبارة عن أسر أصهر بعضها إلى بعض وألفوا بذلك مجتمعاً متجانساً مستقلا ، وكانت هذه الأسر فى أغلب الأحيان يجمعها نسب واحد أو وفدت إلى المدينة من كان واحد ، وعُرفت بعض الأحياء بأسماء الأقاليم التى نزح منها ساكنوها ، أو بأسماء الأب الذى انحدرت منه تلك الأسر ، وكانت لكل حارة أبواب تُغلق على مجموع دورها ليأمن أهلوها من طوارق الليل ، فازدادت بذلك الحارات استقلالا ، ولعل شيخ الحارة الذى فقد وظيفته الاجتماعية السابقة الآن عضو أثرى يدل على ذلك الطور من تاريخ المدينة . وقد تتألف الحارات أيضاً من أسر أصهر بعضها إلى بعض كالأسر الأولى ، ولكنها تتسم بطابع آخر غير الطابع العائلى ، وهو الطابع المهنى ، ونحن نعلم أن أكثر المهن كانت هى الأخرى ، إقطاعية القِوام يتوارثها أصحابها الأبناء عن الآباء ، وعُرفت أحياء بأسماء المهن التى غلبت على ساكنيها وأكسبتها ضرباً من التخصص فى العمل الذى اشتهرت به فى المدينة ، بل وفى غيرها من المدن .

ويصور الأدب الشعبى هذا الاستقلال الذاتى للمدينة ، فإن الملاحم التى كانت غذاء أهليها ، كما كانت غذاء أبناء القرى والكفور ، لاترسم وحدة قومية عامة ، ولا تكاد تعترف بحكومة مركزية تربط عناصر الكيان الاجتماعى العام وتنسق وسائل الإنتاج والخدمات فيه وله ، وإنما ترسم مدناً متناثرة مستقلة ، وتبدأ بصورتها من الخارج ، وتصف مظهر أسوارها وأبراجها وأبوابها وحراسها ثم تصف بعد ذلك مظهرها من الداخل أحياء

مفرّقة ، وحارات مستقلة ، تجمعها قصبة الحكم المحلى والسوق العامة ، ولا يمنع ذلك من أن تكون لكل حارة أو حى قصبة خاصة وسوق خاصة أيضاً . وإذا كان للحكام الكبار مسجد جامع رسمى ، فللحارات والأحياء مساجدها وزواياها ، تقيم فيها الشعائر ، ويلتقى فيها الراشدون فى المواسم وعندما يحزم أمر من الأمور يحتاج إلى رأى جماعى . ومع هذا كله عرفت كل مدينة فى الوطن المصرى بصفات بارزة فيها تُقبس من مَعْلَم ظاهر ، أو أثر شاخص ، أو خصلة تغلب فى نظر المدن الأخرى على سكان المدينة . وكانت قصور الإقطاعيين من الحكام ، وأصهارهم تنهض بالقرب من قصبة الحكم المركزى الذى يتخذه السلطان المملوكى أو الباشا التركى ، وكانت هذه القصور تحكى مظهر المدينة نفسها ، لأنها لم تكن داراً بالمعنى الصحيح أعدت لسكن أسرة واحدة من الأسر ، مهما كان مقامها الاجتماعى ، فإنها تتألف من أفراد يعدون على الأصابع ، وإنما كانت أسواراً مرتفعة ضخمة، وأبواباً ثقيلة محكمة ، وحراساً فى مواضع من هذا السوراً، وبناء موزّعاً تتوسطه رحبة متسعة ، وغرفاً كثيرة لعشيرة الحاكم وحاشيته وجنده وخدمه ومن يحسبون عليه ، وكثرة من يعولهم تشير بذاتها على مقامه الاجتماعى إشارة المساحة المتسعة ، والبناية المعقدة والتى تألف منها قصره ، كما أن هذه الكثرة هى التى تكسبه أيضاً ذلك المقام الاجتماعى ، لأنها وسيلته فى منافسة غيره ، والتغلب على مناظريه ، والقدرة على جباية المال غصباً من سكان المدينة الذين يحترفون التجارة ، ويمتهنون الصناعة ومن سكان الريف . . وكان هؤلاء يقتسمون المدينة فيما بينهم ،

مناطق نفوذ ، كما يقتسمون القطر كله سواء بسواء . وأخبار الحكم ، وتغير الدول ، والأوامر والنواهى ذات الطابع الرسمى ، كانت تنشر على الملأ بوساطة مناد يصحبه ممثلون للحكومة يجوس خلال الأحياء والحارات ، واستقرت هذه المنشورات الرسمية الصوتية على تقليد معين فى صياغة العبارة أو تسجيعها ، بحيث تسهل المناداة بها ، وتخف مؤونتها على الأذن التى تتلقاها ، وحتى يستطاع حفظها أياماً بعد ذلك ، وألف الناس فى المدينة هذا المنظر ، واحترف أفراد مهنة المناداة غير الرسمية عندما يفقد شىء أو يضل غلام ويريد أصحابه معاونة الأحياء والحارات المستقلة الأخرى فى العثور عليه . وكان الخوف هو الشعور الأساسى الذى لا يزايل النفوس داخل أسوار المدينة وفى طرقاتها ، وعند أرباضها أيضاً ، ولا زلنا نسمع من الجيل الأول الذى لا يزال أفراد منه على قيد الحياة ، قصص ذلك الطور من التاريخ القديم ، وكيف كانت الخفارة إقطاعية الطابع لها « مقدم » أو متعهد يجمع الخفراء للمحافظة فى القاهرة ، ويتفاهم على أجورهم ، والمحافظة لا شأن لها معهم إلا أن يقوموا بما اتفقت عليه مع المقدم ! !

وليس أدل على استقلال المدن على هذا النحو ، واستقلال الأحياء والحارات بعضها عن بعض من مظهر الموالد الإقليمية الكبرى ، عندما يجتمع سكان مدن مختلفة فى صعيد واحد ، وتتخذ كل مدينة موقعاً معيناً من ساحة المولد تنصب فيه خيامها ، ويجتمع فيه أفرادها ، ومن الموالد التى تقام لواحد من أهل البيت وأولياء الله الصالحين فى المدينة نفسها ،

واجتماع الناس على هذه الصورة ، وما يشتجر بين ممثلى مدينة ومدينة أخرى من عراك ، ومرما يقوم بينهم من مباريات رياضية على النحو القديم ، كالتحطيب والبرجاس وما يدب بين ممثلى الأحياء والحارات المختلفة من منازعات ، وما يرسب فى نفوس أولئك وهؤلاء من ثارات وحقود تظل مكبوتة إلى الموسم التالى ، واستتبع ذلك تناظر عنيف بين الأشياخ والفتوات الذين يقومون على كل قسم من أقسام المدينة ، وتجاوزهم إلى السكان جميعاً ، وبدا هذا التناظر فى كل مظهر من مظاهر الحياة ، فى الملبس والسمت والمطية ، وعند الأفراح والمآتم وحفلات الختان ، وما إليها ، واشتدت المنافسة حتى خرجت عن كل حد معقول ، ودفعت إلى السرف والمباهاة ، وقضت فى كثير من الأحيان على أموال أصحابها جملة ، وأضافت شهرة ذائعة الصوت فى نجارة رائجة ومهنة دقيقة .

كان هذا هو النموذج الاجتماعى العام للمدينة الذى ينزع بأفرادها إلى محاكاته . . كل فى حيه وحارته ، وهو نموذج يباين طبيعة الحياة فى الوطن المصرى ، ويضيّق إطار الوجدان القومى ، ويجعله يقوم على عصبية أدنى إلى القبلية منها إلى القومية أو الوطنية ، ولكن الوجدان الشعبى المصرى ، كثيراً ما كان ينتصر ويحطم حواجز هذه العصبيات ويخرجها من قواقعها التى اعتصمت بها ، ويكون ذلك فى الملمات الجسام وعند توقع الخطر الذى يؤثر على حياة الجميع ، فقد هبت المدينة مراراً فى وجه الإقطاع والطغيان ، وتناست الأسوار التى تحيط بها من كل جانب والتى استشعرت أنها قد تكون أداة حصار ، كما تكون أداة أمن ، واتصلت بالمدن الأخرى

وارتفعت الحواجز المضروبة بينها وبين القرى والكفور، وتألف من هذه الزمر شعب واحد متجانس، كما فطرته الحياة . . . وفى كل مرة ينبض قلبه الواحد ينتصر على عدوه الواحد، وينجح فى تغيير ظروفه إلى حين. وكان المفروض أن تتطور المدن تطوراً طبيعياً على يد أهليها ، فكلما زاد السكان على طاقة حى اتصلوا بحى آخر، وكلما تكاثف السكان فى مدينة، أبعدوا أسوارها قليلا أو تجاوزوها إلى ما وراءها وأقاموا غيرها، وحطموها أو تركوها عضواً أثرياً يدل على طور من أطوارها .. وكان ذلك يحدث فى تاريخ المدن فتزدهر أو تخمل، وتكبر أو تصغر ، وقد تتحول القرية إلى مدينة .

ولكن حملة نابليون عندما دخلت القاهرة ، حطمت أبواب الأحياء والحارات ، وعُدّ ذلك مظهراً من مظاهر الإصلاح ، وسبباً من أسباب التقدم ، ولكنه من الناحية الاجتماعية كان عملا مفاجئاً لا يلائم نفسية السكان ، ولا يحكى نموذجهم الذى درجوا عليه ، ولو أنه جاء استجابة لنزعة الوجدان القومى إلى الاتحاد والتعاون بين سكان المدينة جميعاً على نحو أقوى مما كان ، لما استحدث تلك الحيرة التى وقع الأهلون فيها بين حاضر لم يألفوه ، وماض آمنوا معه مفاجآت الزمن وطوارق الأحداث .

وعلى الرغم من هذا كله أفاد الوجدان الشعبى من تقدم وسائل المواصلات. . وكان ذلك التقدم متابعة لمنطق النيل فى جمع ما تفرق من الأقاليم والمدن ، وجاءت السكك الحديدية ، وتابعت النيل فى سيره تقريباً من الجنوب إلى الشمال واتخذت أسلوبه فى استحداث شبكة تنتظم ما بين

فرعيه ، ونهضت بذلك مدن وخملت مدن أخرى تجاوزتها السكك الحديدية ، ولكنها فى الوقت نفسه استحدثت تأثيراً آخر بفعل الطابع المركزى الذى اصطنعه الحكام وقت ذاك ونتج عنه ، أن اختلفت صور الحياة فى مدن قليلة جداً عنها فى سائرها ، وأصبحت القاهرة والإسكندرية وغيرهما من العواصم الكبرى ، تبدو مغايرة تمام المغايرة فى الصورة العامة ، وفى مظهر الحياة ، وفى عدد السكان ، بل وفى النموذج الاجتماعى فى الغالب الأعم لما تتسم به عشرات المدن فى الوجهين البحرى والقبلى ، وتركزت الأضواء على القاهرة والإسكندرية بصفة خاصة ، وزادت الجاذبية ، أو المغناطيسية الذاتية لكل منهما ، وأصبحت الإقامة فيهما تبدو وكأنها امتياز اجتماعى للمقيمين فيهما ، لأنهما قصبة الحكم فى الشتاء والصيف وما بينهما ، وساعد الاستعمار على ذلك كى يستكمل القطيعة بين عناصر المجتمع المصرى ، وتوسل بالتعليم لتحقيق هذه الغاية. وقد سبق أن ذكرنا شاهد ذلك فى الفصل السابق ، عندما تحدثنا عن بعض بواعث الهجرة من الريف إلى المدينة ، ولذلك رأينا أن التعليم الذى كان يستهدف تخريج الموظفين المرءوسين للإنجليز ، الموجهين لجميع المرافق أعان على هذه النتيجة ، حتى أصبح أقصى ما يتمناه المتخرج من المدارس أن يستقر به المقام فى القاهرة أو الإسكندرية ، وفى القاهرة أكثر ، ويألم غاية الألم إذا لم يعين فيها أو إذا نقل منها ، وكان له العذر فى هذا الشعور لأن القاهرة والإسكندرية أصبحتا تستوعبان جميع ألوان النشاط تقريباً ، وتصب فيهما أكثر الأموال ، وينفق عليهما أكثر مما ينفق على القطر كله !

ونحن لا ننكر أفراداً بأعيانهم نهضوا ببعض عواصم الأقاليم والمراكز ، وشقوا فيها الطرق المتسعة ، وأقاموا المتنزهات ، وردموا الترع المتوسطة ، وشيدوا دوراً جديدة للحكومة المحلية ومدارس ومستشفيات ، ولكنه عمل أفراد لم توح به سياسة عامة وهو لا يزال ينسب إلى القلة التى قامت به ، ولعل الناس فى هذه المدن يؤرخون الأحداث بتلك المشروعات . . ونحن لا ننكر كذلك ، أن البلديات المختلفة حاولت على قدر طاقتها المحدودة ، وفى نطاق ميزانياتها المحدودة ، أن تستحدث ضرباً من التجديد فى المدن ، وأن هذه الضروب غيرت من الصورة الظاهرية ، ولكنها لم تنفذ إلى الطابع العام . وكان هذا كله عملا مظهرياً لا يقصد إلى الإصلاح فى ذاته ، ولا يرتكز على دراسات اجتماعية تتعمق الروح الجماعية فى المدينة ، وتعتمد على إحصائيات كاملة لجميع العناصر التى تقطنها ، وتوزع الخدمات عليها بالقسط ، وتستشرف فى الوقت نفسه مستقبل المدينة ، وتبنى مشروعاتها على العدالة الاجتماعية والحساب الدقيق لظروف المستقبل. وكانت الشوارع التى تمهد أو توسع ، والمتنزهات والميادين التى تقام ، تتصل بالجانب الأرستقراطى من السكان ويركز الاهتمام على هذا الجانب ، فى حين تهمل الجوانب الأخرى ويكون العمل للشهرة والمفاخرة لا لمجرد الخدمة العامة . وأعجب من هذا كله أن تهمل أحياء الوطنيين ويعنى بأحياء الأجانب ، ومن هنا رأينا مدناً تنقسم إلى حى العرب وحى الأفرنج !

وانعكست هذه الظاهرة على القاهرة نفسها ، والجيل الثانى قد لاحظها تمام الملاحظة ، فقد كان يكفى أن يتخير واحد من الحكام موضعاً يقيم

فيه داره فى ربض من الأرباض بظاهر المدينة ، حتى تشق الطرق إليه أمامه ، وتقام المشروعات المختلفة لخدمة فرد واحد . . وكان الذى يسير على النيل يرى نفسه مضطرًّا لمفارقته ، لأن حديقة فرد من الأفراد تمتد إليه ، وهو إذا وجد المصابيح تمتد مسافة معينة ثم تنقطع ، على الرغم من امتداد الحياة وقيام المساكن بعد ذلك ، كان من اليسير عليه أن يدرك الباعث على التوقف الذى يشير إليه بيت من بيوت الحكام وأشياعهم وهكذا. وكما كانت القاهرة مجموعة من مدن وقرى التحمت واتصلت حتى كونت هذه المدينة العظيمة ، فكذلك نشأت أحياء جديدة ، بُذل فى تنسيقها ورعايتها ما لم يبذل جزء يسير منه للأحياء القديمة، ولعل من أبرز الشواهد على تغير الصورة لبقعة من البقاع اسم « زمالك » ، فإن هذا الاسم يدل الآن على حىّ معروف من الأحياء الجديدة التى تزهو بها القاهرة الحديثة . . أتعلم معنى هذا الاسم ؟ . . إن معناه « الأكواخ » ، ولا بد أنها كانت موجودة فى هذه البقعة قبل ذلك ثم نقل أصحابها أو أجلُوا إلى مسافة بعيدة ناحية الغرب ، وقامت على أنقاض أكواخهم قصور شاهقة وعمارات ضخام ، وبقى الاسم القديم الذى يشير إلى التاريخ القريب .

واستحدث الارتجال تأثيراً عميقاً فى حياة المدينة لأنه ضاعف أولا من التفاوت الاجتماعى بين عناصرها ، وجعل مظهر هذا التفاوت يبدو شاخصاً مؤثراً على نفسية الفرد وعلى نفسية الجماعة على السواء ، ولم يحافظ على الطابع المصرى الذى نشأ ثمرة لطبيعة الأرض ، والجو وتقاليد المجتمع ، ولم يعد السوق الذى اتسمت به مدننا الشرقية كما كان ، ولم يتطور من

داخله ، ولكنه تحول إلى صورة أخرى مختلفة تمام الاختلاف . . صورة أجنبية فى كل شىء ، وإن ألفها الجيل الثالث وغزاها وشارك فى حياتها ، وهذه السوق هى التى كانت رمز المدينة ، فقد درجت الأجيال الماضية فى لغتها اليومية أن يقول الفرد منهم ، « إننى ذاهب إلى المدينة » أى إلى السوق ، حيث الوكالات الكبيرة التى تعرض مختلف الصناعات والمهن والأدوات والأشياء كما أن اتخاذ كل مهنة حياً معيناً جعل سكان المدينة يبادرون إليه إذا احتاجوا ثمرة من ثمرات هذه المهنة ، وضاع التخصص فى الزحام ، ولم تبق منه إلا آثار قليلة ، وتعرضت المدينة بفعل الاستعمار أيضاً إلى أن تغزوها منتجات الآلة الكبيرة ، فترنحت الصناعات الصغرى فيها ، وبدأت تنحسر عن الحياة بسرعة متزايدة ، وغير ذلك فى مظهر الحياة ، واستحدث أنماطاً جديدة ، وأزياء جديدة ، وهى أنماط وأزياء واحدة الطابع يقوم الاختلاف بينها على اللون والمقياس ، ولكنه لا يقوم على القالب ، وبذلك اختفى الاختيار الشخصى من قوالب متعددة ، تصنع استجابة لمزاج خاص ، ورغبة خاصة ، واستتبع ذلك ضعف النقابية بمفهومها الوراثى القديم أو زوالها تقريباً ، فقد كان الفرد الذى يريد أن يتأهل لمهنة من المهن أو صناعة من الصناعات ، إما أن يرثها عن أبيه بملازمته له وتدربه عليه ، وبذلك تتواصل حياة المهنة وتستمر أجيالا متعاقبة ، وإما أن يلتحق بـ « أسطى » ، وهى بعينها كلمة « أستاذ » ويقوم منه مقام الابن أو الصبى ، ويظل يلازمه إلى أن يستكمل ثقافته العملية فيستقل بنفسه ويفتح دكانا ، يصنع فيه أو يتجر ، على شاكلة معلمه

تماماً ؛ ولأفراد كل مهنة أو تجارة شيخ أو نقيب ، يجمعهم ويعالج مشكلاتهم ، ويصلح ذات بينهم ، ويبحث عن عمل للعاطل منهم ، ويدعو إلى معاونة من يتعرض لنائبة من النوائب أو من ينزل به إفلاس مفاجئ ؛ ولا تزال لبعض هذه الطوائف مراسيمها القديمة ، ولهم أشياخهم ونقباؤهم وإن تراخى تعاونهم ، ورثّ تكافلهم تبعاً لتغير النموذج الاجتماعى والباحث يستطيع أن يعرف القهاوى الخاصة بكل منهم ، يلجأ إليها العاطل والمحتاج إلى العون والمشورة ، ويستطيع أن يعرف أيضاً الدكاكين التى يشتغل فيها بعض المتعطلين بأجور معروفة إلى أن يجدوا عملا مناسباً .

* * *

وتغيرت الصورة تغيراً كاملا ، بعدما تحولت الكتاتيب القديمة إلى مدارس وأنشئت مراحل متعددة للتعليم وأنواع مختلفة من المدارس المهنية الوسطى ، ورتبت هذه المدارس بحيث تجعل إحداها يتسم بما يشبه الامتياز الاجتماعى ، وتؤدى إلى ما بعدها من حلقات تكسب الذى يبلغها حقوقاً لا يحصل عليها ، غيره ؛ ولم تستطع المدارس المهنية أن تتابع بالضبط وظيفة الأسطى والمعلم فى التدريب والتشغيل جميعاً ، وإن خلفت وعياً مهنيًّا من نوع آخر بين أفرادها فيما بعد ، وكان التعليم كله بمراحله وأنواعه ، يتركز فى الحصول على الوظيفة . والجيل الماضى يذكر تلك الفقرة التى كتبت باللغات الثلاث : العربية والإنجليزية والفرنسية على الورقة التى تسجل فيها درجات التلاميذ

فى مختلف الفترات من العام الدراسى ، والتى نصت على أنها بيان بالدرجات فقط ، وليست شهادة بالمعنى الصحيح الذى يجيز لحاملها التوظف فى الحكومة ، وكان الغرض من هذه الفقرة وأمثالها ، هو مجرد التفريق بين ذلك البيان وبين الشهادة التى يُعطاها التلميذ عند انتهاء مرحلة كاملة من المراحل ، ومن هنا أصبحت الشهادة غاية التعليم ، وأصبح الامتحان هو الجسر الموصّل إلى الشهادة فالوظيفة ، وانسلخت المدرسة تماماً عن المدينة بعامة ، وعن الحىّ بخاصة ، وظهر تأثير ذلك الانفصال واصطناع الأزياء المعينة عندما أمّ التعليم العام ، واندفعت إليه طبقات المدينة كلها ، وقضى بذلك على آخر أثر للصورة الاجتماعية القديمة فى توارث المهن ، والاتصال بفرد يأخذ الصبى عليه المران والتجربة ، ويستعين به فى الحصول على عمل أيضاً ، وانحصرت مهمة المدرسة من أجل الامتحان والشهادة فى التلقين النظرى ، والاتكاء على الحافظة وعدم الاهتمام إطلاقاً بعلاقة مواد الدراسة بالحياة؛ ثم شهدت المدينة التى تتركز فيها المدارس ما شهدته الحياة فى الجيل الماضى من تقلقل ، واستغل الشباب فى العصبيات والشيع وانفرطت صلته بالمدرسة وبالأسرة معاً ، ولم تعد المدرسة نائبة عن الأب فى التعليم والتدريب والتشغيل ، وضاعت الصلة النفسية بين الأجيال وأصبحت تقوم على غير المودة المألوفة فى الأسرة الواحدة . .

وكانت القهاوى تقوم بوظائف اجتماعية ، فهى ملتقى جيل من أبناء الحى أو من أهل المدينة ، يتشاورون فى عملهم وينسقون خدماتهم ، ويلتقون بزملائهم وبعض زبائنهم ، ويزجون فراغهم فى الوقت نفسه بعد

عمل النهار الطويل ، ويستمعون فى كثير من الأحيان إلى الملاحم الشعبية التى تبعث ما كمن فيهم من غرائز الكفاح ، أو تُحيي من أطوائهم عصبية نائمة ، أو تفرغ شحنة شعور مكبوت ؛ ولم يكن الشباب يغشى هذه القهاوى لأنها كانت مقصورة على الكهول ، وهى التى صاغت إلى حد كبير العواطف المبثوثة فى الملاحم الشعبية ، — كما قلنا فى فصل سابق — تتغنى الحب المتعقل الذى يحتفل بنموذج الحياة الزوجية ، وينكر كل علاقة غيرها ؛ وظل الأمر كذلك حتى تزلزلت النماذج القديمة ، وحطمت الحواجز النفسية التى كانت تحول بين الشباب وبين غشيان القهاوى.. حطمت تلك الحواجز كما حطمت أسوار المدن والأحياء والحارات ، ولم تكن الحياة قد استعدت تماماً لهذا التغير السريع الذى لم ينشأ من الداخل ، فلم تحكم علاقة المدرسة بالحى ولم تجعلها تنتظم أندية الشباب ، وتحير أفراد كثيرون عندهم طاقات مختزنة وينزعون إلى التسامى بعواطفهم ، واجتذبتهم أندية مفروضة على نموذج أجنبى غربى ، أو نموذج شرقى لم تألفه الحياة حتى فى القرون الوسطى ، ونادى أولئك وهؤلاء باتحادات المدارس العليا أو الأندية الرياضية ، أو. . ولم يستشعر أحد من هذا الجيل أو ذاك نزوع الحياة فى نفسه إلى الخدمة العامة غير ذات الطابع الإقطاعى المظهرى ، وهى الخدمة التى تقصد لذاتها ، ولا تقصد لغاية أخرى وراءها من لقب أو شهرة أو منصب. . الخدمة الاجتماعية لكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى . . الخدمة الاجتماعية التى لا تقوم على استعلاء طبقة على طبقة أو فرد على فرد ، ولا يصحبها الإعلان والتصوير ، ولا تعتمد على

مجرد الإحسان بمفهومه القديم ، وإنما تعتمد على التكافل الواجب فى مجتمع كريم على نفسه وعلى أفراده .

وما نستطيع أن نترك أسوار المدينة القديمة وحدودها الجديدة ، دون أن نشير إلى حقيقة على جانب من الأهمية فى مجتمعنا ، فإن المهن الدقيقة التى لا تزال باقية ، والشهرة المتسعة التى اكتسبها أفراد بأعيانهم فى المهن والخدمات ، حتى أصبحت لأسمائهم قيمة تجارية فى ذاتها . . إن هذه المهن ينبغى أن نحرص عليها ، لا لأنها صناعة من الصناعات ، ولا لأننا نحرص على المحافظة على القديم ، ولكن لأنها كانت ولا تزال أدنى إلى الفن من الصناعة ، ولأنها تصوّر الروح المصرى ، وكل ما تحتاج إليه هو أن تتسع نفوس العاملين فيها ، وألا يظل كما كان آباؤهم وأجدادهم يتصورون أن الرزق لا يحتاج إلى تجديد ، وأن يُغروا أبناءهم بالإقبال على هذه المهن والإفادة من سمعة آبائهم اطراداً لسير الحياة ، وأن يعملوا على تحسين وسائلهم فى الإنتاج والعمل والتوزيع ، وهم بذلك يخدمون أنفسهم ومجتمعهم ، ويجتذبون السائحين إلى بلادهم ، لا لكى يُدْهشوا ، ولكن لكى يعجبوا !

وثمت مظهر آخر من مظاهر التفريق فى الكيان الاجتماعى ، هو عدم استيعاب البيت الذى يقيم فيه الفرد العادى لجميع نشاطه بعد الفراغ من عمله ، فاندفع إلى خارج بيته ، واتخذ هذا الاندفاع صوراً متعددة ، أظهرها ازدحام القهاوى التى أصبحت أندية ليلية للكهول ، والمنادرْ أو المناذر عند الميسورين والمقتدرين ، أما النساء فكن يُقمن فى الدور

ويتزاورن فيما بينهن ، وأصبح هناك أدبٌ يحكى مجتمع القهوة ومجتمع المندرة من ناحية ، وآخر يحكى مجتمع النساء فى الدور ؛ وغلب على الأول الملاحم والقصص عند الأوساط ومن دونهم ، والأسمار والنوادر والأخبار وبعض المعارف عند المتعلمين ومن إليهم ، وغلبت على الثانى حكايات فيها عروق خرافية كثيرة، « وفوازير » تقوم عل الكناية والرمز . والمطّلع على هذه الأنواع الأدبية ، يستطيع أن يرتبها على أساس الجنس ، أى على أساس الأدب الخاص بالذكور ، والأدب الخاص بالإناث ، ثم على أساس اجتماعى ، أى الأدب الخاص بالطبقات العليا وبعض الوسطى ، والأدب الخاص بالذين أحرزوا حظًّا من التعليم ، والذين اعتمدوا على الحياة فى تحصيل الثقافة والمعرفة ، وهذا الأدب يحكى النموذج العام الذى وجدناه فى الريف ، ولكن فى إطار أكثر صقلا ، وهو يقوم بوظيفة مختلفة بعض الشىء عما كان يقوم به فى الريف ، فالإذعان للقدر واحد عند الجميع ، والاستسلام لما يأتى به الغد واحد عند أولئك وهؤلاء، بيد أنه كان فى الريف ، تراثاً جماعيًّا ، أما فى المدينة فقد تحول من إثارة انفعال خاص تتطلبه الحياة العملية للفرد وللجماعة ، إلى تسلية خالصة تفرغ شحنة الشعور بالوهم ، وتصطنع فى سبيل ذلك مشاهد شبه تمثيلية ، تجعل المتذوق لها يتصور أنها واقع مريح يرفعه إلى حين من حاضره المكدود .

واليوم تتحطم الأسوار الإقطاعية القديمة التى كانت تعوق المدينة عن النمو ، وتفرق بين أوصالها وجوارحها ، وهذا التحطيم لا يقوم على

رفع الأحجار وإزالة الأنقاض ، وإنما يقوم على توسيع المجال النفسى للأفراد والعشائر والأحياء والمشتغلين بمختلف الأعمال وشتى المهن ، ويتخذ النموذج الحقيقى الذى رسمته طبيعة البيئة المصرية ، وفطرة المصريين ، وهو النموذج الذى يقوم على التوحيد الكامل بين الريف والقرية والمدينة ، بحيث يؤلف الجميع كياناً اجتماعياً ، واضح القسمات والملامح ، تبرز شخصيته بكل مقوماتها بين الشخصيات الجماعية الأخرى ، وتظهر القرابة التى تُبين عن وحدة الأصل بينه وبين أبناء عمومته الذين يؤلفون الشعوب العربية ، ومن ثم لم تعد الخدمات وقفاً على أفراد أو أحياء ، ولكنها حق الجميع فى الوطن المصرى كله ، وسوف يعيد هذا بطبيعة الحال ما انبت بين المنظمات الاجتماعية وبين سكان كل مدينة ، وهى الخدمات التى يُحس المواطنون بحاجتهم إليها ، وينتزعون من تلقاء أنفسهم إلى تحقيقها لأنفسهم ؛ ويختفى الكبت ويزول الخوف الذى دفع إلى إقامة الأسوار وإغلاق الأبواب على المدن والأحياء والحارات ، ودفع بعض الأفراد إلى حفر السراديب تحت الأرض للخروج منها أو الاختفاء فيها ، ودفع آخرين إلى بناء الجدران التمويهية لإخفاء أمواله وراءها. وكم ضاعت كنوز ولم توظف ولم تفد منها الحياة شيئاً ، لا لأن اللصوص سرقوها ، ولا لأن الأحداث العامة تخطفتها ، ولكن لأن أصحابها أمعنوا فى إخفائها ، والذاكرة الشعبية لم تنس بعد ، الحكايات الكثيرة عن القدور التى يُعثر عليها فجاءة وفيها سكة الذهب والفضة ضربت فى عصر بيننا وبينه قرون وقرون ، ولا تزال ألسنتنا تستعمل إلى اليوم عبارات تدل على هذه الصورة

وهى ، إخراج ما تحت البلاطة !

لكل مدينة حياتها وروحها الجماعى ، ولها مع ذلك وشائج قربى تصلها بالوطن كله ، إنها جارحة من جوارحه وجزء لايتجزأ من كيانه ، وتراثها من تراثه وأمجادها من أمجاده ، ولها إلى هذا كله حظها المعلوم من الخدمات العامة والميزانية العامة ، والتخطيط القومى سيُعيد التوازن إلى أوصال الوطن المصرى جميعاً . ولم يبق إلا أن تحس وجودها فى ذاتها ، وفى مجتمعها العام ، وأن تستعيد نموذجها الاجتماعى ، المستخلص من واقع الحياة المتطورة ، وأن تفيد من جميع عناصرها وأفرادها ، وأن تقيم أسباب العيش فى ربوعها على أساس من الإنتاج المستغل لكل طاقاتها وقدراتها ، وعلى أساس من التكافل والتعاون بين طبقاتها وأحيائها ، وأن يكون هذا كله جهداً منسقاً غير مرتجل ، تدعو إليه الخدمة العامة فى ذاتها ، ولا يدعو إليه تظاهر شخصى ، أو إعلان عن الذات ، أو رغبة ظاهرة أو خفية فى تحقيق مغنم قريب . ويا حبذا لو انعكس تواصل الحياة بعد أن حطمت الأسوار المصطنعة على متاحف إقليمية تحافظ على خصائص الإقليم ، وتراثه وروائع النوابغ من أفراده ، وأن يكون ذلك فى المدينة ، التى تقوم من الإقليم مقام القلب والعقل جميعاً .

الثورة الصناعية

. . . وشاعت فى القرن التاسع عشر أنظارٌ تكتسى المظهر العلمى ، وهى أنظار اقتنع بها ، وروّجها المفكرون الأوروبيون ، عندما التفتوا إلى نموذج الحياة فى واقعهم الغربى ، ومن واقع الأمم الشرقية التى بسطوا عليها سلطانهم ، واتخذوها مورداً للمادة الخامة لآلاتهم ، وسوقا تمتص الإنتاج المتزايد فى مصانعهم . وهذه الأنظار ترسم التاريخ الإنسانى على أنه مراحل تطور ، أرقاها الطور الصناعى الذى بلغه المجتمع الغربى ، ومن ثم كانت مصر أدنأ منهم رقيا ، وأقل حضارة ، لأنها بلد زراعى . ولم يكتفوا بذلك ، بل راح الذين يبررون الاستعباد الجماعى ، الذى يُسمى خطأ بالاستعمار ، ويؤيدون سلطانه ، يتشبثون بأن مصر ستظل على حالها ذاك ، وأنها لن تصعد إلى المرحلة التالية ، وهى مرحلة الصناعة ، لأن مقومات الصناعة من الحديد ، ومن الفحم أو غيره من مواد الوقود ، لا وجود لها فى هذا الموطن . ولما قامت الحرب الكبرى الأولى ، وتوقفت حركة استيراد بعض المنتجات الصناعية إلى حين ، نشطت مصر فى بعض الصناعات ، ولكنها لم تبلغ الشأوَ الذى يغير أساس الحياة الاقتصادية فى مصر . واتُّهم العقل المصرى تبعاً لذلك بأنه عقل زراعى يؤثر التأمل المستقر الهادئ ، وينزع إلى مجرّد النظر والتساؤل ، ويغلب عليه منطق الصورة ، ويميل إلى الجدل شبه الفلسفىّ ، ولا ينتهى فى كل أولئك إلى رأى قاطع حاسم ، فيستسلم

لما يأتى به الغيب ، وهو عقل يناقض فى زعم هؤلاء المفكرين ، العقلية الغربية الحديثة التى تجاوزت أطوار الخرافة والغيبية ، وتوسلت بمنطق المادة ، واعتمدت على المشاهدة والتجربة ، ونزعت إلى ما يشبه الوجوبَ والحتم فى النتائج التى تنتهى إليها . وهذه العقلية الغربية فى بحثها المستمر عن المجهول ، وتطويقها للمادة ، واستنباطها للقوى الكامنة فيها ، واستغلال هذا كله فى ترقية الحياة ، ووسائل العيش ، لها الحق فى الاستعلاء على غيرها ، والتحكم فى غيرها .

ونسىَ أولئك وهؤلاء أن نظرية العقول المتناقضة ، لا تستقيم مع فطرة الحياة الإنسانية المتكاملة ، وأنها تنسى ، أو تتناسى عن عمد ، التراث الثقافى الطويل ، الذى مرّت فيه الحضارات ، ومصر لها تراثٌ حضارىٌّ طويل ، وفيها من الاستعداد للتطور ، ما ليس فى غيرها ، والعقل الإنسانىّ واحد ، وهو لا يختلف إلا باختلاف الظروف . والعلمُ القديم والحديث قيمة إنسانية ، وهو ليس كالعملة الاصطلاحية ، التى يُقتصرُ تداولها على موضع بعينه ، وعلى فترة بعينها . . إنه قيمةٌ لا وطن لها ، ومن ثمّ كان صنيع الاستعمار فى الاعتماد على الإيحاء والاستهواء ، مضللًا وظالما عندما اتكأ على أن مصر بلد زراعى ، وسيظل كذلك أبدَ الدهر ، وحبس الاستعمارُ علمه ، ومنعَ خبرته الفنية عن التصدير ، وتطلع العقل المصرى بما جُبل عليه من نزوع ورغبة فى المعرفة ، إلى ذلك العلم الحديث ، وهتف بإنشاء الجامعة لتكون أولا وقبل كل شىء ، مدينة فاضلة تنمو فيها شخصية الفرد ، ويتحرر عقله من رواسب الماضى ، وأكاذيب الاستعمار

ولتتواصل فيها الأجيال على اصطناع المنهج العلمي ، وتهيئة السبيل لتخريج طائفة من أهل الخبرة الفنية ، يقومون على المرافق ، وينهضون بأسباب العيش ، ويزيدون من الإنتاج ، ويغيرون من صورة الحياة المرتكزة على اليد ، إلى صورة أخرى ، ترتكز على الآلة الجبارة ، وقد مرّ بنا ، أن الاستعمار الإنجليزى لم يسكت على هذه الوظيفة التى استشعرها المجتمع المصرى ، التى نزع إلى تحقيقها بإنشاء الجامعة ، فدعى إلى حركة مضادة ، مظهرها ديمقراطى ، وغايتها إيقاف التطور ، ووجه الانتباه إلى الكتاتيب لأنها أجدر بالاهتمام فى نظره . ولما انتصرت الحياة على هذا الجهد المصطنع ، حاول الاستعمارُ أن يجرف الجامعة عن مهمتها ، وأعانته فى ذلك قوى الرجعية الأخرى . . .

وكان من الطبيعى أن يحرص الاستعمار على النماذج الاجتماعية التى بدأت تفقد وظائفها الإيجابية الفعالة ، وأن يقاوم الوظائف الجديدة التى تدفع إلى خلق أعضاء جديدة ، ومن ثم قاوم كلّ حركة تدعو إلى تحويل الفائض من رأس المال المصرى ، الموظف فى الزراعة ، إلى ميدانىْ الصناعة والتجارة ، وقاوم كذلك تشجيع الأفراد والهيئات على الادخار ، وتوظيف المدّخر فى المشروعات الإنتاجية الكبرى ، ورسب فى نفوس المصريين ما كان قد استقر فى أطوائها من « إنفاق ما فى الجيب ، ليأتى ما فى الغيب » ؛ وكما زعمَ أنّ مصر بلدٌ زراعى إلى أبد الآبدين ، فكذلك زعم أن العقلية المصرية لا تستطيع بحكم فطرتها وتراثها ، أن تقيم عملا كبيراً معقداً ، وأنها عاجزةٌ عن الأعمال المصرفية التى لابد منها لتلك المشروعات.

وهزأت الحياة التى تسير دائماً أبداً فى طريقها بهذا التضليل الإيحائى ، ونجحت الدعوة إلى تحقيق حلم عرابى فى إنشاء مصرف وطنى ، وأعان على تحقيق هذه الدعوة « الوجدان الشعبى » الذى برز فى ثورة عام١٩١٩. ونتج عن إنشائه أن أثبتت العقلية المصرية قدرتها على الأعمال المصرفية ، وما لبث أن توسع مجاله ، وأنشأ مشروعات كبيرة أخرى تستغل المادة المصرية الخامة ، وتوظف المال المصرى ، وتستخدم اليد المصرية ، وعلى غرار هذه المشروعات ، أنشأت مؤسسات صناعية وتجارية أخرى ، ولكن الكيان الاجتماعى الذى يقوم على الإقطاع ، جعلَ هذه الجهود هى المنفذ للفائض الكثير من ثمرات الإقطاع الزراعى كما جعل قوام بعض هذه الجهود ، احتكارياً فى فئة قلية من الناس ، وبقى سواد الشعب بمعزل عنها فى الغالب ، لأن السندات والأسهم كانت تستنفدها تقريباً طبقة واحدة فحسب. وكثيراً ما اشتجر الخلاف بين رأس مال هذه الطبقة ، وبين رأس المال غير المصرى ، وكثيراً ما وقف الاستعمارُ ليفيد من هذا الخلاف ، وتستر مالٌ غيرُ مصرى وراء أفراد مصريين من هذه الطبقة ، واصطنع الأعلام المصرية ، واشتغلت بعضُ المؤسسات غير المصرية ، بأعمال لا تمت إلى وظائفها بسبب ، وتوسل الجميع بالسياسة ، واستغلوها لقضاء مصالحهم البعيدة والقريبة على السواء ، وبلغ من سلطان بعض الشركات أن بسطت يدها على مرافق الدولة مثلها فى ذلك مثلُ رأس الإقطاع فى استغلال جميع الخدمات لتحقيق لباناته الخاصة !

وجاءت الثورةُ الصناعية الحقيقية عام ١٩٥٢ بقيم جديدة ، وأزالت

إلى الأبد الأوهام القديمة ، وبرّأت الوجدان الشعبي من خرافة ، « مصر لمن غلب» ، فحرّرت الوطن المصرى من التدخل الأجنبي فى شئونه ، وردّت موجة الاستعمار عن أراضيه ، ولم يكن هذا الاستعمار مجرّد جيش محتل اعتصم آخر أمره وبتلك البقعة المصرية عند مجمع البحرين ، ولكنه كان استعماراً ، اقتصاديا ، ونفسيا ، وعقليا ، ولذلك حرصت الثورة منذ اللحظة الأولى على تبرئة المجتمع المصرى من تحكم الاستعمار فى حياته الاقتصادية ، بما كان يصطنع من وسائل ظاهرة وخفية ، وخلص مصر من أبشع صور الحصار ، الذى يغل الإرادة ، ويقف فى وجه التقدم ، ويحول بين المواطنين وبين تنمية إنتاجهم ، وترقية مستوى العيش فى بلادهم ، وهو الحصار الذى كان الاستعمار يضيقه على الخناق ليرغم المجتمع على الإذعان له أولا ، والوقوف حيث شاء ثانياً ، والسير وراء موكبه ثالثاً ، وعمدت الثورة أيضاً إلى أن تَطِببَّ للمجتمع المصرى ، وتبرأه من الأدواء النفسية ، التى كانت قد استقرت فى كيانه استقرار العلل المزمنة ، وهى أدواءٌ خيل الاستعمارُ لصنائعه أنها خلائق فطرية ، لاينبغى أن يشكو المجتمع منها ، لأن شكواه ستذهب مع الريح ، فكذلك فطرته الحياة ، وحدّدت طاقته ورسمت له نوع العمل ، وخطت أمامه الطريق الذى يسلكه ، ولكن إرادة الحياة والنزوع إلى الصحة والتكامل جعلا الثورة الصناعية تنظر إلى هذه الأدواء النفسية نظراً واقعياً ، فتشخصها ، وتُعالجها وتُعيد إلى المجتمع ثقته بنفسه ، وقدرته على العمل فى كل مجال ، وحريته فى اختيار الطريق الذى يسلكه ليلحق بالمجتمعات المتحضرة ،

وكان على مجتمعنا أن يعوّض ما فوّته الاستعمار والإقطاع ، وأن تكون سرعته فى السير متزايدة ، وأما الاستعمارُ العقلى فقد تبدّد بعد أن زالت الغشاوة عن العيون ، ولم يبق إلا أن يصطنع منطق المادة على الاحتفاظ بمقومات حياته الروحية التى جعلته يقاوم ظروفاً لا قبل لشعب آخر بها ، وأن يتجه إلى استغلال نفسه،والكشف عن المادة والطاقة فى وطنه العريق .

ونشط العقل المصرى ، ولم يضيع لحظة واحدة فى الحيرة ، ونأى بجانبه عن تلك الآفة القديمة التى اتسم بها المجتمع ، وأريد له ألا يتلخص منها ، وهى آفة الارتجال ، وكأنما كان العمل استجابة غريزية مؤقتة . . استجابة غريزية لحفنة من الأفراد، يعملون ما يعن لهم فى لحظة ، ويُجندون القوة المادية والبشرية لتحقيق هذه الاستجابة الآلية المؤقتة. والارتجال هو الذى أفقد المجتمع لتوازنه ، وجعل خطواته لا يكافئ بعضها بعضا ، وهو الذى جعل المجتمع يتألف من خلايا يستقل بعضها عن بعض ، وتنمو فى داخل الكيان الاجتماعى العام ، نموّ الأورام الخبيثة ، فلما أفاق المجتمع ونزع عن كاهله هذه الأورام ، لم يشأ أن يسير فى الحياة على النحو القديم العشوائى ، وآثر أن يدرس جميع الإمكانيات وجميع التفاصيل ، ولذلك وضع خطة كاملة للعمل الجماعى تضع كلّ جارحة فى موضعها ، وتوضح علاقتها بالجوارح الأخرى ، وتعيد إليها وظيفتها الإيجابية لمنفعتها ومنفعة الجماعة ، وكان التخطيط القومى ، الذى لا تند عنه واردة ولا شاردة ، والذى يقوم بمساحة تفصيلية للبيئة المادية ، وما فيها من عنصر وطاقة ، وللقوة البشرية الموجودة ، وكيف يُفاد منها ، والتى ينبغى أن توجد للوفاء

بأسباب التطوّر الذى يرتكز على التصنيع .

وكأنما شاءت الحياة أن تسخر من منطق الاستعمار ، فتحققت أركان الثورة الصناعية عندما بدأ العقل المصرى يكشف عن البيئة المادية لموطنه العريق ، فعثر على الحديد الذى يقيم الصناعة الثقيلة ، وعثر عليه بكميات تكفى حاجات مصر أجيالا وأجيالا ، ولم يُهمل هذا الكشف ، ولم يستصغر شأنه ، أو يشغل بمجرّد العثور عليه ، ولكنه بادر إلى اتخاذ الخطوات العملية التى تطوّعه لأغراض التصنيع ، ولم يجعل استغلاله وقفا على أموال أفراد بأعيانهم ، كما كان الشأن فى الماضى ، ولكنه دعا الشعب بأسره إلى النهوض به ، وخلق الفرص لأصحاب الدخول الصغيرة للاكتتاب فيه. ولم ينس أن يهيئ الخبرة التى يتطلبها ، فدفع فريقاً من الشباب إلى التدرب على مختلف الجهود التى تحتاج إليها هذه الصناعة العظيمة ، وزاوج بين كشفه وبين كشف آخر هو الطاقة التى تحرك الآلات ، وتدير الأفران ، فاستغلّ مساقط المياه عند خزان أسوان ، ولم يجعل هذا الاستغلال موضوعاً للجدل والتناظر ، وتبديداً للقوى ، وإضعافاً للهمم ، كما حدث فى الجيل الماضى ، ورسم خطة النهوض بمشروع لعله أعظم المشروعات العالمية من نوعه وهو السد العالى ، لم يستهوله ، ولم يقل باستحالته ، وإنما قام بكل ما يتطلبه المشروع من دراسات تفصيلية معقدة ، وأفاد من الخبرة الفنية فى كل فرع من فروعه ، ثم بدأ يشرع فى العمل لفوره ، ويقسمه إلى مراحل ، ويهيئ له أسباب التمويل ، ويمهد له الطرق ، ويخطّ المدن ، ولن تمضى سنوات حتى يتحول إلى حقيقة مجسمة شاخصة :

وثورتنا الصناعية تستهدف غايتين أساسيتين ، تنتظمان معاً الموازنةُ بين عدد السكان المتزايدين ، وبين أسباب العيش الكريم ، وهاتان الغايتان هما ؛ أولا تصنيع الريف المصرى ، وذلك بالاعتماد على الآلات فى الرى والبذر والحصاد والنقل . وهذا التصنيع سيغير من غير شك فى الصورة الظاهرية للمجتمع الريفى ، وهو يضبط الحركة البشرية فى تنوع العمل بالوطن المصرى ، وعدم انحباسه فى الزراعة على النمط القديم ، ولن يستتبع بطالة زراعية كما توهم بعض الباحثين ، لأن الآلات فى ذاتها ستحتاج فى إقامتها ، وإدارتها وإصلاحها إلى أيد عاملة ، وكل ما فى الأمر أن يصبح جانب كبير من العمل فى الريف ، سواء أكان ذلك فى الإنتاج الزراعى أو الإنتاج الحيوانى عملا فنياً ، يحتاج إلى قدرات معينة ومنوّعة ، وبذلك يضيع إلى الأبد التفريق القديم بين العمل الصناعى الفنى ، وبين العمل الزراعى غير الفنى ، ويتبدد إلى غير رجعة ، ذلك الاستعلاء الذى جعل العملين يتفاوتان درجة وطبقة ، وتصبح النقابات التى تنتظم المشتغلين بالزراعة ، حقيقة واقعة لا فكرة نظرية . . حقيقة واقعة تدعو إليها الحياة ، ويقتضيها نوع العمل ، وتتغير القرية تبعا لهذا كله ، فلا تظل دروبا متعرجة بلا اتجاه ، ودوراً متلاصقة على هذا النمط ، وتتحول إلى مدن صغيرة ، تصل إليها المياه المرشحة النظيفة ، والنور الكهربائى وتنتظم فيها وسائل الأمن والوقاية من الحريق ، وتستبدل لبناتُ الطين بالآجرّ والحجر والأسمنت ، ويستغنى العمال الزراعيون عن اختزان الوقود فوق أسطح دورهم ، وهو الذى يتعرض للحريق لأبسط سبب ،

فإذا شبت ريح أخذت النار والقرية من جميع أقطارها ، وذهبت بما فيها من طارف وتليد . ونشأت فى هذه المدن الصغيرة جميع الخدمات التى نجدها فى المدن الكبيرة ، وتحول نظامها المترنح بين الإقطاع القديم فى صور العمد وأشياخ البلد ، إلى نظام مدنى خالص ، وقامت المجالس القروية بوظائفها التى تناط بها حقيقة لا شكلا ، وتوثقت العلاقة بينها وبين المدن التى تكبرها ، وزالت الحواجز التى كانت تفرق بين الحياة فى القرية والحياة فى البندر . وهكذا تُستغل جميع الإمكانيات فى الريف ، ويتضاعف إنتاجه ، ويرتفع مستوى الحياة فيه ، وتصبح القدرة الشرائية موجودة طوال العام لا فى أوقات معينة تحددها المواسم ، ويتنوع العمل ثم تتبدد الرواسب التى فقدت وظائفها ، ويستقر فى النفوس مثلا أن الماء المرشح النظيف ، هو بعينه ماء النيل ، ولم تذهب قطرة من مائه عبثا لا يُفادُ منها فى سقيا الزرع ، والحيوان والإنسان ، وتتعادل الجاذبية بين العواصم والقرى ، فلا يحدث ذلك الاجتذاب المصطنع إلى تلك العواصم ، وبخاصة إلى القاهرة ولا يجد المتعلم غضاضة من الإقامة فى الريف.

والهدف الثانى الذى تستهدفه الثورة الصناعية ، هو خلق الصناعة الثقيلة ، وهى التى ستغير من صورة الحياة الظاهرية فى الوطن كله ، فسوف تخلق مدنا جديدة ، تختلف عن المدن القديمة لأنها لم تحمل فى تضاعيفها تلك الأنماط الكثيرة التى تحكى أطوار الحياة الطويلة على مدى التاريخ كما أن هذه الصناعة ستنشط وسائل الاتصال بين أقاليم المجتمع المصرى وعناصره ، وتقضى بذلك على البقية الباقية من الأسوار المادية

والنفسية ، ولن تقتصر أسباب الاتصال على شبكة الخطوط الحديدية ، وما يصحبها من أسلاك البرق والتليفون ، ولكنها ستتجاوز ذلك ، إلى أنحاء متعددة فى الوطن المصرى ، بعضها ظل بعيداً إلى حدّ ما عن الاتصال ، وبعضها لم تستقر فيه الحياة ، ويتتبع ذلك إقامة شبكة كبيرة من الطرق التى تربط جميع الأجزاء بعضها ببعض ، وسوف يتخذ النيل نفسه كوسيلة جديدة من وسائل الاتصال الحديث المستمر على مدى العام ، وستنتقل الطاقة الكهربائية مسافات شاسعة ، وبأسعار منخفضة ، وستتجاوز العمل الصناعى إلى الخدمة المنزلية بحيث يُفيد منها جميع أصحاب الدخول الصغيرة.. وينتج عن هذا كله ، انقلاب هائل فى الحياة الاجتماعية لا يغير الأنماط والأزياء فقط ، ولكنه يتغلغل فى النفوس والعقول أيضاً ، ويُثبت هذا الانقلاب فى ذاته ، أن العقل المصرى ، عنده استعداد فطرى للتغير وملاءمة الظروف الجديدة ، وأن هذا العقل قادرٌ على اصطناع منطق المادة ، ومنهج المشاهدة والتجربة ، وأنه يستطيع أن يقوم بالخبرة المطلوبة – إذا تهيأت له أسباب الحصول عليها – فى أحكام الصناعة وإقامة الآلة بل وتصميمها أيضاً . . وكما يغير التصنيع الزراعى من صورة القرية ، فكذلك يغير التصنيع الثقيل من صورة المدينة ، فيجتث تلك الدروب الضيقة التى لم تَعدْ مسايرة لأسباب المواصلات الضخام ، وسيقضى على العمل اليدوى ، ويصبح معلماً من معالم تاريخنا الاقتصادى ، وتتحول بعض نماذجه الدقيقة إلى جهد فنى ، ولكن هذا التحول يجىء من حوافز مصرية أصيلة ، وبأيد مصرية خالصة ، ولن يكون – كما كان قبل ذلك –

عملاخارجيًّا ، لم ننتزع إليه نزعة نفسية أوضرورةٌ من ضرورات الحياة، ولن تبصر العين وسائل النقل القديمة ، وتحل محلها الوسائلُ الجديدة ، وتنسجم صورة المدينة فى دورها وأحيائها وأزياء سكانها ووسائل الاتصال فى داخلها وفى خارجها . .

وهذا الاتجاه الذى تتجه إليه الثورة الصناعية، غايته الاكتفاء الذاتى، وهو ما يساير فطرة الشعب المصرى فى استقلال شخصيته الجماعية عن الشخصيات الجماعية الأخرى ، بيد أن هذا الاكتفاء الذاتى يتطلب عملا موصولا ، وهو لا يزال فى مرحلته الأولى ، ومن أجل ذلك كان على المجتمع المصرى أن يفيد من الخبرة الفنية حيثما تكون ، فيستقدمها ، أو يرسل البعوث المصرية إلى مواطنها . والخبرة الفنية جهدٌ محايد لأن العلم الذى ترتكز علية قيمة محايدة فى ذاتها ، واستيرادها أو تحصيلها من هنا وهناك —لا يستتبع عند المجتمع الذى يعى ذاته، ويحس وجوده ، ويُقاوم التدخل — بسط سلطان معين على هذا المجتمع . . ولكى نبلغ الاكتفاء الذاتى فى الخبرة الفنية أيضا ، كان لزاماً علينا أن نستعين بالمتخصصين ، وأن نتخيرهم بأنفسنا ، وأن نأخذ منهم ما نريد فقط ، ويبقى بعد ذلك أن نطوّر منظماتنا التعليمية ، وبخاصة فى مراحلها الأخيرة بحيث تصبح وثيقة الاتصال بالتصنيع الثقيل ، والإنتاج الكبير ، والخدمات الاجتماعية الشاملة ، وأن نخلصها من الاقتصار على المعرفة النظرية ، فقد أصبحت المعرفة وحدة متكاملة فى النظر والتطبيق ، وأن نبرئ برامجها من التوجيه المفتعل الذى حاول بوساطته الاستعمار والإقطاع أن يغلا الفكر ، وأن

يحولا بينه وبين النشاط الإيجابى لمصلحة الفرد ، ولمصلحة الجماعة . .

ومجتمعنا منذ اليوم يحتفل بالعمل على أنه سمة من سمات الحياة الإنسانية أولاً ، وقيمة من قيمها العليا ثانياً ، ووسيلة من وسائل تحقيق الشخصية الفردية والعامة ثالثاً ، وهو بهذه الصورة يمقت المتطفل الذى يعيش متبطلا على حساب العاملين ، والذى يقوم من الكيان الاجتماعى مقام الطفيليات من الجسم ، يضعفها ويوهن من قدرتها على الحركة ، ويحول بينها وبين النمو ، ويستحدث فى الوقت نفسه نماذج شاذة ومتحللة تدافع عن البطالة الاختيارية ، وتكسب نفسها حقاً غير مشروع فى جهد الغير ، وتصور مُثلا غريبة فى التخلق والسلوك وتحيط نفسها بمراسيم وأوضاع ، وتدفع الاستغلال الذى يقوم على الانتهازية ، وخلق فرص مصطنعة ، والاستعلاء على الغير بلا مبرر مشروع ، ثم التحكم فى إيرادات الآخرين ، وتسخيرهم لقضاء مصالحه وتحقيق غاياته . وهو يمقت الاستغلال لأنه يتجاوز الذى يقوم به إلى غيره ، ولأنه يقضى على شخصيات الأفراد ، ويتدخل فى حياة الجماعة ، ويحاول بهذه القدرة التى تستوعب طاقاته وطاقات غيره ، أن يحرف المجتمع عن غاياته ، وأن يضلله عن طريقه ، ويثبت نماذج اجتماعية لا يتطلبها التطور ، ويشيع رذائل النفاق والإمعية والتفريق ، فى الكيان الاجتماعى كله على أنها وسيلة محققة من وسائل النجاح الفردى . . وسوف تقضى الثورة الصناعية على التطفل والاستغلال جميعاً ، لأنها تقدس العمل ، وهو قوامها وروحها . ومن أجل ذلك صانت الثورة العمل ، وأبرزت شخصيته فى إطارها العام ، ثم حرصت على تمام الموازنة

بينه وبين رأس المال لأنها تساير منطق المجتمع المصرى فى التآزر والوحدة ، كما حرصت على الموازنة بين أنواعه المختلفة التى يقوم اختلافها على تقسيم الجهد ، وتخصص الفرد ، ووحدت بين الخبرة الفنية والخبرة الإدارية . . إنها جميعاً خبرةٌ تريدها الحياة فى هذا الطور ، وهى جميعاً عملٌ كريم على أصحابه ، وعلى الذين يقومون بأعمال أخرى تختلف عنها نوعا ، وكريم على المجتمع كله كرامة سائر الأعمال . . .

ويعتمد مجتمعنا تهيئاً للثورة الصناعية على ثلاثة أسس ، يقيم عليها كيانه ، وهذه الأسس الثلاثة هى : أولا . الاشتراكية التى تؤمن بالتطور ، وتقيم وجودها على تكافل الطبقات والتقريب بينها ، والتى توازن بين الفرد وبين الجماعة ، وبين العمل وبين رأس المال ، وبين الجهد الفردى والجهد القومى مجسما فى توجيهات الدولة وحاجاتها . . والثانى هو المعرفة التى تكبر من شأن العلم ، وتجعله قريب الموارد من جميع الأفراد وبخاصة فى مراحله الأولى ، وتصل بينه وبين الحياة الفردية والقومية ، وتربطه بالبيئة الخاصة والعامة ، وتحقق به شخصيات الأفراد بحيث لا يصبون فى قوالب مكرورة ، وتؤكد بوساطته قيم الحياة العليا فى الحق والخير والجمال ، وتعظم من شأن العمل ، كأعظم ما تصبو إليه نفوس الأفراد . أما الأساس الثالث فهو القانون الذى تتحقق به إرادة الهيئة الاجتماعية ، وتتوحد عناصرها ، وتتساوق خطواتها وتقضى بوساطته على التحلل والانحراف ، والخروج عن النموذج الذى يقرّه المجتمع أو يضبط به سلوك العناصر والأفراد . وهذا القانون الذى يثبت الحقوق ، ويحدد الواجبات ، ويجعل الحياة تتسم بالحرية

لا الإباحية ، وبالعزة لا التطفل ، وبالكرامة لا الاستغلال .

وهذه الثورة العاقلة ، التى تعبر عن اتجاه الحياة الاجتماعية فى الوطن المصرى ، لن تقع فيما وقعت فيه الثورات الصناعية الأخرى ، لأنها تُفيد من تجاريب الحياة فى سائر الأوطان ، فهى ليست ثورةَ مجتمع منعزل ، وقد مرّ بك أن الوطن المصرى يتصل اتصالا ماديا ، وثقافيًّا بغيره من الأوطان وأن الأمة المصرية ، كانت تقوم بإشباع ثقافتها الخاصة ، وتمثل الثقافات الأجنبية عنها ، فتفيد من الصالح لكيانها ، وتلفظ ما لا يسيغه أو يفيد هذا الكيان . ومن أجل ذلك حرصت على الاحتفاظ بخصائصها الثابتة ، وأدخلت فى حسابها العنصر التاريخى ، والفترة الحاضرة ، والمستقبل الذى تستشرف إليه ، كما حرصت على دراسة الثورات الصناعية التى سبقت ، وما عرّضت له مجتمعاتها من تذبذب بين نماذج اجتماعية متباينة ، فأخذت مضمون العلم الموضوعى ، ولم تر بأساً فى اصطناع منهجه ، والإفادة من ثمرات تطبيقه ، وحافظت فى الوقت نفسه على ملامحها الخاصة ، وواصلت القيام برسالتها الحضرية فى هذا الموقع الفريد الذى استقرت فيه مصر منذ آلاف السنين ، وهى تعمل جاهدة على تطوير النموذج الاجتماعى من الداخل ، وتعديل وظائفه بحيث يحتفظ المجتمع فى كيانه العام ، وفى العناصر التى يتألف منها بانسجامه وترابطه واتساق حركته ، ويستتبع ذلك بطبيعة الحال النظر الواقعى إلى المجتمع ، الذى لا يطبق عليه نماذج أجنبية أو عتيقة . . أيا كان مصدرها من اليمين أو اليسار ، وأيا كان أصلها الذى لا يمت إلى التراث القومىّ ، والثقافة القومية ، والعرف الاجتماعى بسبب

قريب أو بعيد ، والمزاوجة بين القيم الروحية وبين العمل المتخصص فى تطويع المادة ، يجعل الحياة متكاملة ، ويجعل الجهد ذا قيمة فى نفسه ، ويبرؤه من مظهر الرّتابة ، ويخلصه من طغيان الآلة على الإنسان طغيانا يُسوّدها عليه ، ويحكمها فيه ، ومن ثم عنيت الثورة الصناعية بالخدمة الاجتماعية ، وتوسعت فيها ، وجعلتها حقاً معلوما لكل فرد فى كل سن ، واحتفلت بالفراغ احتفالا بالعمل ، تنويعاً لضروب النشاط ، وترويحاً عن النفس واستغلالا للزمن . .

ولكن هذه الثورة تتطلب من الأفراد والجماعات ، أن يُدْركوا إطارها ومضمونها وتأثيرها أيضاً ، وأن يعملوا عن وعى فى أن يلائموا بين نفوسهم وبينها ، ذلك لأن الإنتاج الصناعى الكبير معناه اصطناع قوى هائلة لا تعدلها قوى الجماعات مهما بلغ عددها ، وحسبك أن تعلم أن الآلة الواحدة ، قد يكون فيها من القوى ما يزيد على ما كان فى جيش نابليون ، وحسبك أن تعلم كذلك أن المساحة ستضيق بالقياس إلى سرعة الاتصال . . الاتصال المادى والفكرى ، بنقل الأجسام والأصوات والصور والأشياء ، وأن تعلم فوق هذا وذاك ، أن اللحظة الواحدة ستتسع حتّى تصبح لحظة عالمية ، وإذا كانت الفنون فيما مضى قد انصرفت إلى إمتاع الخاصة ، وكانت تتطلب من الأفراد ، أن يتدربوا على وسائلها بأنفسهم ، أو أن يتذوقوا روائعها بمشقة وكدّ وارتحال ، فقد أصبحت اليوم كأسلاك النور ، وأنابيب المياه سواء بسواء ، ولذلك كان على الأفراد وعلى الجماعات الصغرى ، والمنظمات الاجتماعية المختلفة أن تتعرّف إلى الطريق ، وإلى

الهدف، وأن تنظم خطواتها مع معدل السرعة المتزايدة فى التطور الاجتماعى، وأن يستجيبوا إلى توجيهات الهيئة الاجتماعية التى أصبحت منهم ولهم، والتى تعبر عن إرادة الحياة فيهم، وتجسم مُثلهم العليا الصحيحة، وتميز بين الواقع الحى وبين التخيل الوهمى، الذى كان سمة النموذج الإقطاعى القديم.

وسوف يصحب الإنتاج الكبير من غير شك، استهلاكاً كبيراً أيضاً يجعل ارتفاع مستوى المعيشة متساوياً فى كل إقليم، وفى كل طبقة، ويقرب بين عناصر المجتمع، ومن ثم كانت القدرة الشرائية أساسية عند الجميع، وليس من غرضى أن أخوض فى الجانب الاقتصادى: ولكن أشير فقط إلى نتائج التطور فى مجتمعنا، وما أكثر الكماليات التى ستصبح ضرورات حتى عند الطبقات الدنيا والوسطى، وكلما اتسعت دائرة الضرورات كان ذلك دليلا على أن مستوى المعيشة يأخذ فى الارتفاع، والجيل الماضى يذكر كيف كان الفوتوغراف والسينما ثم الراديو فيما بعد من الأدوات الكمالية ثم أصبح على الأيام ضرورة لا يستغنى عنها فى بيت من البيوت، أو منظمة من المنظمات.

وبهذه المزاوجة بين الخصائص الثابتة لمجتمعنا وبين مقتضيات ثورته الصناعية، ترسُخ نماذجه الخالدة ذوات الوظائف المتجددة، وتنمحى النماذج الأجنبية والمصطنعة، وتتبدد القيم التى جاءت إليه على كره منه، وتوقفت على سطحه ولم تبلغ وجدانه، ويتحقق التوحد الذى تنزع إليه البيئة المادية والتاريخ الموصول على نحو لم يسبق له مثيل، وتنتفى كلّ

شبهة فى الرجعة والانتكاس ويستقبل المجتمع الغدّ المرجو بوجهه لا بظهره .. يستقبله وهو واثق من الطريق آمن على كيانه ، مسدّد الخطى إلى غاية يراها ، ويحمل مسئوليته التى وضعت على كواهله كمجتمع حرّ لا سيادة لأحد عليه ، غير ما يدفعه إليه وجدانه القومى السليم .

وتتطلب معرفته بذاته أن يقوم بتعبئة قواه ، وتدعيم تطوره بالقيم المستخلصة من الدين والعرف والتراث الطويل ، ومن العلم ومن الفن لكى تحتفظ صورته الاجتماعية بمضمونها الإنسانى المتميز فى كل حين ، وتخليص منظماته من الإجراءات العقيمة المعقدة التى كانت ثمرة من ثمرات الخوف وسوء الظن وأن تبرئها من الروتين المركب الذى تضيع فيه الجهود ، وتنطمس التبعات ، وأن يحلّ فى محل هذا كله تقليد جديد قوامه التعاون ، واحترام الشخصية ، واحتمال التبعة الخاصة والعامة على السواء ، وليفطن كل امرئ منا إلى مكانه من مجتمعه الخاص ومجتمعه العام ، وأنه بجهده وتعبيره يحقق ذاته الفردية ، وذاته الجماعية أيضا ، وأن عمله لنفسه يتضمن عمله للجماعة ، وأنه إنسان يُتاح له أن يطوى الحياة فى أعطافه ، وأن ينشرها فيما حوله ، وأنه مصرى يضم فى نفسه تراث أمة عريقة مجيدة لها رسالة تقوم على الحضارة والبناء والسلام ، وأن اللفظ الذى يستعمله للإبانة عن ذاته وهى ضمير المتكلم « أنا » ، يتسع حتى يشمل إخوته ومواطنيه والأجيال التى سبقت والتى سوف تكرّ بعده ، وأن المجتمع يقوم منه مقام الضمير فى ضبط عمله وتصويب اتجاهه ، وتقويم ذوقه ، وتحديد سلوكه . . .

خاتمة

والفرد تتعدل شخصيته بتعدل بيئته، ونحن نعيش فى عصر اشتدت فيه عزيمة الإنسان وقويت إرادته واتسعت قدرته ، وأصبح عاملا فعالا فى تعديل البيئة المادية التى يعيش فيها؛ ومن حسن حظ المواطن المصرى أنه جاء إلى الدنيا فى هذه البقعة الفذة من العالم ذلك لأن معدل السرعة فى تغيير البيئة ، وهو المعدل الذى يزداد يوماً بعد يوم ، يوازن الخصائص الأساسية العامة للمواطن المصرى ، وهى الخصائص التى احتفظت بوجودها وفاعليتها على الرغم من الأحداث الكثيرة فى التاريخ المصرى الطويل . ولم توجد بقعة تدعو إلى استقرار ساكنيها وتكافل وحداتهم الاجتماعية، وتواصل حياتهم على مدى الأجيال كهذه البقعة . والاتحاد قوامها الأول ... اتحاد الأقاليم بوساطة النيل الذى يمتد فيها امتداد الشريان فى الجسم ، واتحاد الطبقات المتكافلة التى يقوم بعضها ببعض ، كما تقوم المدرجات النهرية سواء بسواء ، واتحاد العناصر الطبيعية ذاتها فى علاقة الشمس بالنيل ودورته فى التصعيد والتكثيف بين الأرض والسماء ، ولا توجد بقعة تلوّن الحياة فيها بلونها ، وتطبعها بطابعها ، مهما كانت أصولها كهذه البقعة التى ضاعت معالم روافدها البشرية فى التيار العام ، وتمثلها الأرض كما يتمثل الجسم مختلف ألوان الغذاء. وليست الحياة الإنسانية فيها معزولة عن التطور البشرى العام ، ذلك لأنها تتصل بالجماعات الأخرى عن

طريق البحرين اللذين يجتمعان عند كتفها الأيمن والصحراوين اللتين تمتدان على جانبيها ، ولكنها أعطت أكثر مما أخذت ، وأثرت أكثر مما تأثرت ، واستجابت للفكرات العظيمة والحقائق الكبرى التى تلائم استعدادها وفطرتها ومزاجها . ومن هنا آمنت بالتوحيد ودخلت فى دين الله أفواجاً . . .

وهذه القوة التى تعمل على تعديل البيئة ، وتستعين بكل ما كشف عنه أو استنبطه العقل البشرى ، لن تستحدث تناقضاً فى الإطار الاجتماعى العام ، إذا فهم هذا الإطار على وجهه ، ولن تزلزل إلا الأوضاع التى فُرضت على المجتمع فرضاً ، وجاءته من خارج نفسه وعملت على تفريق وحداته وتقطيع أوصاله وإثارة الخصومة والشحناء بين عناصره وطبقاته .

وإذا كان الوجدان الشعبى قد استطاع أن يحافظ على وجوده المتكامل على مدى التاريخ ، وبرغم الأحداث ، ويحقق إرادته فى وجه الطغيان والإقطاع والاستعمار ، فإنه من غير شك سيفيد من تعديل البيئة المادية فى ربط أجزائها بالطرق التى تخطها طولا وعرضاً وتجعلها طوع الساكنين والسالكين جميعاً ، كما أن تعدد وسائل الاتصال وسرعتها ، بل وقدرتها على نقل الأفكار والتجارب والمشاعر والصور والكائنات والأشياء سيرفع من طريق هذا الوجدان الشعبى كل ما كان يعوقه فى الماضى عن النمو وكل ما كان يحول بينه وبين تحقيق ذاته بالتعبير الكامل الصريح المبرأ من التلفيق والإيهام والتخدير .

ولن يسمح هذا الوجدان بعد الآن بالخروج عن الإطار الاجتماعى العام المرن ، القابل للتعديل كلما تعدلت البيئة المادية ، ولن يقف سلبياً

أمام عوامل الهدم والتفريق ، وسيرد بفاعليته الإيجابية الآحاد الضالين أو المنحرفين إلى إطاره ، وسيحاول جاهداً أن يعالج الشذوذ والنتوء لكى يحافظ على خصيصته الأولى فى النزوع إلى التوحد والانسجام .

والرباط المقدس الذى تلتقى فيه الأجيال الحية المعاصرة بالأجيال الكثيرة التى مضت ، والأجيال الكثيرة التى سوف تأتى ، إنما هو اللغة ، ومن أجل ذلك كان المجتمع أسبق المجتمعات إلى الاحتفال باللغة وتقديسها لأنه مجتمع مستقر موصول التاريخ . واستقراره واتصال تاريخه دفعاه إلى الاحتفاظ بتراثه لتفيد الأجيال بعضها من تجارب بعض ولتحقق الحياة بوساطة اللغة ، وغيرها من وسائل التعبير ، إرادتها فى التطور والتقوم ، ولذلك فرض المجتمع المصرى على نفسه وعلى العالم تدوين اللغة ، وهو الذى توسع فى الرمز عن الأشياء والمعانى بالمخارج والأصوات ثم بالصور والحروف ولكن اللغة ليست لهجة معينة من اللهجات التى يستعملها المجتمع ، ولكنها رصيد المجتمع كله فى التعبير عن نفسه ، وهى منظمة اجتماعية ، أو قل إنها أهم المنظمات الاجتماعية لأنها تعكس المجتمع وتصل ما بين أفراده وأجياله ، وهى فى الوقت نفسه تصون هذا المجتمع وتدفع منه ما قد يخرجه عن طبيعته أو يكدر صفحته ، والأصل فى اللغة هو الأصوات المحددة المعانى والدلالات التى اصطلح المجتمع عليها ، والتدوين وسيلة من وسائل حفظ التراث وترسيبه ونقله عبر الزمان وعبر المكان . وما يبدو من خلاف بين اللهجات مصدره توزع اللغة على البيئات الصغيرة والمجتمعات الصغيرة وقد يحكى هذا الخلاف ظواهر إقليمية وطبيعية ومهنية أيضاً ، بيد أنه

خلاف ظاهرى لأن الدرس المتعمق لهذه اللهجات سيكشف ما بينها من روابط متواشجة ، ويميط اللثام عن علاقات قديمة متجردة بين مصر وجاراتها . وانقسام المجتمع إلى أميين وقارئين انقسام ظاهرى أيضاً ، لأن للجميع قدراً من الثقافة بمفهومها الاجتماعى . والحياة تعمل من جانبها على التقريب فالتوحد بين اللهجات ، والمتعمق يرى أنها تتعاون فيما بينها ، وتتبادل التأثر والتأثير ، وهى كلها تشير إلى نموذج موحد قريب ، تعين عليه وسائط الاتصال الجديدة التى تتوسل باللغة المجهورة فى القيام بوظيفتها الاجتماعية ، وسوف تلتقى هذه اللهجات التقاء لغة الحديث ولغة الكتابة وتصبح اللغة أكثر طواعية للتعبير وأقدر على التجميع والتوحيد لا بين عناصر الوطن المصرى وحده ، ولكن بينه وبين الشقيقات العربيات أيضاً ، مع الاحتفاظ بمقوماتها الأساسية التى يزخر بها أدبها الفنى المتنوع .

ويخطئ من يظن أن العادات والتقاليد لا وظائف لها ، ولما كنا نعيش فى فترة يأخذ فيها معدل السرعة فى ازدياد خطواته ويضاعف من القدرة على التعديل والتطوير والتغيير ، فإننا نستطيع أن نقول إن العصر الذى نعيش فيه عصر انتقال لم نشهد له مثيلا من قبل . والواقع أن اصطلاح الاجتماعيين والمؤرخين على عصور كثيرة بأنها فترات انتقال صحيح ؛ ولكن انطباقه على مجتمعنا فى هذا العصر أصح ، ذلك لأن التاريخ البشرى كله يعد بطىء الحركة لا يكاد يلمح التغيير فيه إلا فى فترة طويلة ، ثم أخذ التغيير يركض فى أوائل هذا القرن وكان مجتمعنا يسرع الخطو بلا تساوق أو انسجام فى حركة منظماته وطبقاته وعناصره

ويدفع بقوة تأتيه من خارجه لمصلحتها لا لمصلحته ، ومن أجل ذلك وقع كثيرون من الأفراد فى حيرة بين عادات وتقاليد درجوا عليها ، وأخرى تفرض عليهم فرضاً من خارج نفوسهم . وأدت بهم الحيرة إلى النظر فى القديم وفى الحديث ، واختلفت بينهم وجوه الرأى ولولا ما فطر عليه المجتمع من تماسك لا نفرط عقده وضاع طابعه الذى حافظ له على مشخصاته المتميزة ، وكان الأجدر ألا نؤخذ العادات والتقاليد بظواهرها ، ويحكم عليها حكماً سطحياً ، وإنما تبذل العناية فى التعرف إلى وظائفها الاجتماعية ، فما من عادة وما من تقليد إلا وله وظيفة فعالة ، وأساس هذه الوظائف هو الاحتفاظ بإطار اجتماعى ترى الجماعة صلاحه لحياتها وعائدته على منظماتها وأفرادها ، وهى ، حتى فى أبسط مظاهرها تثير انفعالات معينة يحتاج المجتمع إليها ولا يفرغ شحناتها ، وإنما يستعين بها على القيام بمختلف وجوه النشاط ، مثلها فى ذلك مثل المولد الكهربى . . وهذه العادات وتلك التقاليد بعضها يظل محتفظاً بقدرته على القيام بوظيفته الاجتماعية وبعضها الآخر يعجز عن العمل ويصبح كالعضو الأثرى فى الجسم . ومجتمعنا فى فترة الانتقال الخطيرة هذه يستحدث وظائف جديدة ، والوظائف تخلق الأعضاء — كما يقول أصحاب علم الأحياء — وإن استمرت الوظائف الجديدة على عملها أجيالا ، استحدثت عادات وتقاليد جديدة وهكذا ، ومن ثم كان لزاماً علينا أن نحافظ على العادات والتقاليد ذوات الوظائف الحية فى مجتمعنا ، وألا ننكرها لمجرد قدمها ، أو لأن أفراداً منا تفتنهم نماذج اجتماعية أجنبية ، وأن ننفض عن كياننا

العادات والتقاليد التى فقدت وظائفها الحيوية ، لكى نعين التطور على الحركة ، ولكى نقلل من عدد الضحايا فى المجتمع ، ولكى نخلص هذا المجتمع من الحيرة بين النماذج الاجتماعية المتباينة أو المتناقضة ، وأن نتبين ، إلى جانب هذا كله ، الوظائف الاجتماعية الجديدة ، ونقيس قدرتها على الثبات وملاءمتها للتطور وأن نجسمها فى عادات وتقاليد جديدة ، دون أن ننفر منها لمجرد طرافتها ؛ لأن المعول فى المجتمع إنما هو الوظيفة الإيجابية التى تساير النموذج الاجتماعى العام وتصلح للثبات والتعديل كلما تغيرت البيئة المادية والاجتماعية .

وليس من شك فى أن أهم العادات والتقاليد إنما هى التى تتصل باللبنة الأولى التى يتألف المجتمع منها ، ويقوم بها ، وهذه اللبنة الأولى ، كما أسلفنا ، هى الأسرة . وإذا كانت القبيلة أسرة كبيرة هرمية الشكل بطرقية النظام ، يقوم الأب فيها على مصالح أفرادها ، وكانت الأنساب هى قوام تراثها فإن مجتمعنا الذى استقر فى هذه البقعة الفذة يتألف من أسر . ومن أجل ذلك احتفل المجتمع منذ طفولته بالزواج ، وجعل له شعائر ومراسيم تحكى الإطار الاجتماعى الذى أقره ، والذى يحس بحاجته إلى دوام وجوده وتواصله على ممر الأجيال . والناظر فى أسمى العواطف الإنسانية وهى الرحمة ، يجد أصلها اللغوى من العلاقة الأسرية ، ذلك لأن ترابط أفراد الأسرة الواحدة لا يعدله فى قوته ترابط آخر . ونظم المجتمع تكوين هذه اللبنة فى إطاره العام منذ اللحظة الأولى ، ورسم لها المثل الذى تسير عليه وجعل اعترافه شرطاً أساسياً لتأليفها ، ثم أحاطها بكل

ضروب العناية والرعاية ، نلمح ذلك فى العادات والتقاليد المتعلقة بالزواج كما نراه فى العرف الذى ينظم علاقات الأفراد والعناصر والطبقات بعضها إلى بعض . والعرف من الناحية الاجتماعية هو القانون غير المكتوب للمجتمع ، وهو أفعل ، وبخاصة فى هذه الناحية ، من القوانين الوضعية. والمجتمع بعاداته وتقاليده وعرفه يحدد علاقة الزوجين ، كل منهما قبل الآخر ، وعلاقتهما بالبنين ثم بالمجتمع كله بعد ذلك ، ويضع القوانين الداخلية والخارجية التى تضبط اختيار الشريكين ، كل منهما للآخر فى نطاق أجيال معينة وفى مجال وجدان جماعى معين ووفق نموذج اجتماعى معين أيضاً . وهو لا يقر عدم التكافؤ الصارخ بين الشريكين ويحافظ على الطابع القومى فى الاختيار محافظته على ثروته البشرية . وإذا كان المجتمع يقدس الأسرة ويحافظ عليها ويصونها من التقلقل ، فإنه ينفر من الطلاق الذى لا يتصل باستكماله لنموذجه المقرر للأسرة ، ولا يعترف به إلا فى حدود ضيقة ولأسباب قوية تتصل بكيان الأسرة إتصالها بكيانه . . وليس المجتمع بناء يتألف من لبنات تقوم كل واحدة منها بنفسها وإن تراصت وانتظمت بحيث يقوم بها البناء كله ، ولكنها منظمات اجتماعية متفاعلة ومتكاملة . والوجدان الشعبى صورة أرقى من الوجدان القبلى . وهذه الأسر تتماسك فيما بينها تماسك الخلايا الحية فى الجسم الذى يستوى على هيئة معروفة مشخصة ذات ملامح وقسمات . ومن ثم كان حرص المجتمع عليها حرصه على ذاته القومية . وهو يرسم النموذج الذى تحتذيه كل أسرة ، وهو نموذج واحد عام ، ولكنه يرسم فى الوقت نفسه اتصال هذه

الأسر بعضها ببعض اتصالا عمليًّا ونفسيًّا اجتماعيًّا، ويقاوم من أجل ذلك الخروج على النموذج مقاومته لتراخى الأواصر بين مختلف الأسر والعشائر التى تنتظم المجتمع كله . ويؤصل الفضائل الأخلاقية والاجتماعية فى نفوس الأفراد لكى يحافظ على مقومات الأسرة ومقوماته فى آن واحد ، ومن ثم جعل الأسرة هى خليته الحية وأقامها على الدين والأخلاق والقومية والوطنية .

وكانت العوامل المصطنعة التى تقطع أوصال المجتمع ليسهل عليها تسخيره واستغلاله، تثير وعياً طبقيًّا لا تسيغه البيئة الطبيعية ولا يلائم فطرة الشعب المصرى . وأطلق الأجانب الوافدون على هذا الوادى عبارة «أصحاب الجلاليب الزرقاء» كناية عن الفلاحين الذين يعدون قوام المجتمع المصرى كله ، والذين يستخرجون من الأرض الطيبة الثمرات التى يعيش المجتمع عليها ويأكل من خيرها . واستحدثت هذه العناصر الأجنبية ضروباً من الاستعلاء على أصحاب الجلاليب الزرقاء وعبروا بذلك عن استعلائهم على المجتمع كله، ثم فصلوا بينه وبين الطبقات الحاكمة الأجنبية ومن لاذ بها وحُسب عليها ، وبرروا بذلك تحكمهم فى الفلاحين وتسخيرهم إياهم واحتكارهم لثمرات عملهم . وظل هذا الاستعلاء المصطنع أجيالا متعاقبة ، وكان أصحاب الجلاليب الزرقاء يقاومونه ، ويظهرون عليه حيناً وينهزمون أمامه أحياناً . ومن العجيب أن الاستعمار الغربى أدرك ما لهذا الاستعلاء من أثر ، فبرز وجوده واستغلاله بالدفاع عن أصحاب الجلاليب الزرقاء، وعمل فى الوقت نفسه على سلخ المنظمات التعليمية عن الريف والقرية ، واستحدثت بذلك هجرة منظمة تقوم بالأعمال الإدارية وتنقطع صلتها

بالأرض الطيبة إلى جانب ما توسل الاستعمار به من استغلال التعليم فى التطويع لرغباته وحبس القوة المتعلمة فى نطاق محدود لا يسمح لها بنمو الشخصية وحرية الفكر والعمل للصالح العام ، وفرض أزياء وأنماطاً تناقض ما درج عليه المصريون الذين يعيشون بالزراعة وللزراعة ؛ ولكن المجتمع بما فطر عليه من حيوية وصلابة ونزوع إلى التوحد ، عمل على جعل المدرسة منظمة اجتماعية، وحاول أن يعيد إليها وظيفتها الإيجابية فى إصلاح البيئة الزراعية ووصل ما انقطع بين المدرسة والقرية. وستكون اللامركزية فى الخدمات عاملا فعالا على احتفاظ الريف بمتعلميه ، والإفادة منهم فى إصلاح القرية من الداخل وبإرادة أهليها ، ووفق النموذج الذى يرتضون ، لا من الخارج وبأيد أجنبية ، ووفق نموذج لا علاقة لهم به ولا حاجة بحياتهم إليه.

. . أما المدن التى تتركز فيها أسباب الحكم وتتجمع وسائل التجارة والصناعة ، فقد كانت وحدات منفصلة . وكان هذا الاستقلال الذاتى يناقض طبيعة النيل التى تجمع بين الأقاليم والعناصر فى صعيد واحد ، وبشريان واحد ، وكانت الأسوار تحيط بكل مدينة ، وقد مر بك أن الأحياء كانت أسوار عشائر وطوائف وأنها كانت تغلق هى الأخرى بأبواب ثقال ، ثم حرصت الدول الحاكمة الأجنبية على أن تحكم المجتمع كله حكماً مركزياً ، فبرز الموظفون على غيرهم من عناصر المجتمع ، وكان رؤساؤهم من غير المصريين ، وسودوا أنفسهم عليه وتدفقت الثروة كلها فى القاهرة والإسكندرية وأصبح البون بينهما وبين سائر المدن شاسعاً جداً من الناحية المادية ومن الناحية الاجتماعية. واختلت الجاذبية البشرية فى سائر

المدن ، وقويت فى العاصمتين ، أو قل احتكرت فى العاصمتين . ووقر فى النفوس آن العمل فيهما يفضل العمل فى سواهما ، وأضحى أمل الموظفين أن يعينوا فى القاهرة أو فى الإسكندرية ، وإذا نقلوا منهما اعتبروا ذلك عقوبة أو ما يشبه العقوبة . وكان الاهتمام بمناطق الحاكمين وأحياء الأجانب يكاد يستنفذ الجهد والمال ، ولكن « التخطيط القومى» الذى ينظر إلى الوطن كله نظرة واحدة ، قد بدأ يغير من هذا الاتجاه فى تغيير البيئة المادية والاجتماعية فى المدينة . وبذلك تنمو المدن المصرية نمواً اجتماعياً مطرداً يلائم قوتها البشرية ويتخلص سكانها من الأسوار النفسية التى جعلتهم يستشعرون الهوان إزاء الحاكمين والأجانب ، وتصبح هذه المدن جوارح فى الكيان الاجتماعى يتصل بعضها ببعض وتسير جميعاً على نموذج اجتماعى عام وتفيد جميعاً من ميزانية الدولة فى الخدمات العامة وتستعيد منظماتها ما ينبغى لها من وظائف إيجابية وتقوم الحياة فيها على التعاون والتآزر بين الأفرد والعناصر والأحياء .

. . وكل فرد وكل أسرة وكل منظمة فى مجتمعنا الحاضر ، لها مكانها ومقامها من هذا المجتمع . وقد مضى الزمن الذى كانت عوامل التفريق والتبديد فيه هى الغالبة . والثورة الصناعية التى بدأناها ، مفيدين من تجاريب الأمم الأخرى ، ترد إلى المجتمع نزوعه الأصيل إلى التوحد وتكبر من شأن العمل فى ذاته ، وتجعله قيمة من قيم الحياة العليا ، وتجعله يعود على صاحبه ، وعلى المجتمع معه . وهذه الثورة تستكمل اكتشاف الوطن وتقوى إحساس الشعب بذاته ، وتصل بين الريف والقرية والمدينة ، وترفع

من مستوى المعيشة وتخلق طاقات جديدة ، ولكنها فى الوقت نفسه تساير منطق البيئة المصرية ، وتفيد من تراث الشعب وتحافظ على نماذجه الاجتماعية الصالحة للتطور ، وتخلصه من الكبت والخوف وعقدة النقص ، أمام غيره من المجتمعات . . ولكى نعين الحياة على التقدم ، ينبغى أن ندرك حقيقة مجتمعنا فى هذه الفترة الخصيبة من تاريخنا ، وأن نعاون إرادته التى تنزع بفطرتها إلى الاتحاد والتكافل والتعاون ، لا بين الجيل المعاصر وحده ، ولكن بين الأجيال المقبلة أيضاً ، فنحن لا نعمل لحاضرنا وحده ، وإنما نعمل لمستقبلنا ونطوع الحياة فى أرضنا لأبنائنا وأحفادنا . . وإذا كانت إنسانية الفرد تتحقق بمعرفة نفسه ، فإن إنسانية المجتمع تتحقق بمعرفة نفسه الجامعة ، والمعرفة فى الحالين ليست نظراً ولا تأملا ، ولكنها سلوك وعمل .



مجموعة « اخترنا لك »

أول مجموعة تصدر أول كل شهر باللغتين العربية والإنجليزية نشرت حتى الآن الكتب القيمة الآتية التى تعد مصادر فى موضوعاتها :

١ ــ هذه هى الصهيونية « طبعة ثالثة »

٢ ــ زعماء العصابات الاستعمارية « نفد »

٣ ــ فلسفة الثورة (بجميع اللغات)
للسيد الرئيس جمال عبد الناصر

٤ ــ إفريقيا حلم الاستعمار البريطانى « نفد »

٥ ــ العدالة الاجتماعية « نفد »

٦ ــ أضواء على الحبشة « نفد »

٧ ــ البترول « نفد »

٨ — شمال إفريقيا « نفد »

٩ — جنوب إفريقيا « نفد »

١٠ — تركيا والسياسة العربية « نفد »

١١ — حقيقة الشيوعية « طبعة ثانية »

١٢ — الإمبراطورية البريطانية « نفد »

١٣ — باكستان فى ماضيها وحاضرها « نفد »

١٤ — الدعوة التحريرية الكبرى « طبعة ثانية »

The Islamic Call (بالإنجليزية)

١٥ — الهند والغرب

١٦ — مصر بين ثورتين « طبعة ثانية »

Egypt Between Two Revolutions (بالإنجليزية)

١٧ — مصر ورسالتها

١٨ — الأمة والمواطن الصالح

١٩ ــ الأمة العربية

٢٠ ــ نحو وعى جديد

٢١ ــ الاشتراكية

٢٢ ــ هداة الإنسانية فى الشرق

٢٣ ــ إسرائيل والدول الكبرى

٢٤ ــ مجتمعنا



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر



مجموعة "اخترنا لك"

تصدر شهرية وباللغتين العربية والإنجليزية

ويشترك فى تحريرها وإعدادها :

القائمقام أ.ح محمد عبد القادر حاتم "المشرف على اللجنة"

الدكتورة سهير القلماوى

الدكتور حسين مؤنس

الدكتور عبد الحميد يونس

الأستاذ على أدهم

الدكتور محمد يحيى عويس

الأستاذ محمد مصطفى عطا

الطابع والناشر

دار المعارف بمصر

ص
١٠